الألبــوم

اسم الرواية: **الألبوم**

اسم المؤلف: **أحمد محمد قشوة**

تدقيق لغوي: **هدية علي**

تصميم الغلاف: **عبد الرحمن محمد**

تنسيق داخلي: **مينا تادرس**

رقم الإيداع: **٢٠٢١/٢٢٥٧**

الترقيم الدولي : **٩٧٨٩٧٧٨٤٤١٠٣٨**

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

إبهار
للنشر و التوزيع

E-mail: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

أحمد محمد قشوة

الألبـــوم

إبـهـار
للنشر و التوزيع

إهـداء

إلى مَن تكبّدا العناء مِن أجلي..

أبي رحمه الله، وأمي حفظها الله.

أحمد قشوة

فَتحُ الألبومِ

حلَّ الخريف، وهو الفصل الأمثل طقسًا في نظر أدهم الجميل، والأكثر بشاعة في نظر أخيه يحيى، فبالنسبة له عودة للدراسة في كلية التجارة بقنا مغتربًا بالسكن الجامعي بعض الأيام في الأسبوع بعيدًا عن قريته شلقان، ومدينته القناطر الخيرية بمحافظة القليوبية، ولكنه قد ملّ من كثرة الذهاب في العامين المنصرمين، فقرر تقليل الأيام التي يذهبها، فانتهى أن يذهب يومين فقط في الأسبوع. وأدهم كما هو في المنزل يُحصّل الإيجار من سكان العمارة ويتابع مشاكلهم، فمنهم جاره عبده الدجوي قد اشتكى من ماسورة الصرف، فجاء أدهم بالسباك جاد الحق عزت ليُصلِحها، وشكت جارته سنية رأفت القابعة في الطابق الأرضي من انكسار مصباح الشارع المعلّق بالعامود، فزعّق في وجهها بغضب:

- لّمي ابنك حَزقة الصعلوك من الشارع بكُراته فينصلح المصباح.

وفي عشية ليلة ذهاب يحيى قال لأدهم:

- إني عائد للكلية صباحًا.

- أمرَّت الأجازة هكذا بسرعة؟

- للأسف!

- انشغلنا الفترة السابقة بابنَي كمال الشوربجي فأنسيانا أنفسنا، كم وددت أن نسافر معًا أيامًا للإسكندرية نستمتع بهوائها البحري!
- لا عليك يا ابن أمي سنعوضها الصيف المقبل، أو ربما قريبًا فأنا لا أنوي الانتظام في الحضور سوى هذا الشهر.
- وفقك الله يا يحيى، لتنهي كليتك على خير.

احتضنه في حب كأخ وأب. هكذا يعيشان معًا وحدهما منذ انتهى عهد والديهما بعد مولد يحيى ذي الأعوام الواحدة والعشرين بسنوات قصار، فتعهد أدهم أمام الله أن يرعى أخيه خير رعاية، فأدخله المدرسة الأزهرية، ونجح الفتى في ثانويتها، والتحق أخيرًا بكلية التجارة بقنا، وارتحل في سكن الطلاب هناك ولا يعود إلا في الإجازات، أو عند انتهاء فترة إلقاء المحاضرات قبيل الامتحانات.

وانتقل يحيى بعدها لغرفته لينام تاركًا أدهم جالسًا أمام مكتبه وانتصاف الليل، وقام ليدلف المطبخ يعد لنفسه كوبًا من الحلبة التي يحب احتساءها آناء الليل وأطراف النهار. يصبها من الكنكة في الكوب كنهر يتدفق من شلال، وقلبه يشعر بحنين للشباب المهدور عند نظره ليحيى أخيه، وأحب أن يرى يحيى يعيش حياته كما ينبغي؛ يحيا الحياة بوجه باسم لا عابس، وعلى الرغم من قلة أصدقاء يحيى قرر هو أن يكون صديقه الأجلّ بالإضافة لأخيه الأكبر وأبيه الروحي. حمل كوبه عائدًا ليمر بطريقه بغرفة يحيى المُغلِق على نفسه الباب في ظلام، ففتح منها كوة يرقبه وهو نائم يغط في النوم، تتسع بسمته كلما يراه ينبض بالحياة، وكأن الله يعوضه عن كل من فقدهم في شبابه وجعله لا يعيش الشباب كما

ينبغي ويكون. الموت هو المُعجّز لكل فتيٍّ. أعاد غلق الباب، ونظر للمرآة في غرفته يرى فيها أدهم ذا الثماني وأربعين عامًا مرّوا كقطار لم يتعدَ محصل التذاكر عربته الأولى من الإقلاع حتى الوصول، ود لو يُهشِّم المرآة ويزعّق فيها: (ليس هذا بأنا وما أنتِ بِصادِقة). ولكنه تركها ورجع مكتبه المنفتحة أمامه النافذة إياها التي دخل منها يومًا مروان أبو العينين اللص الشريف، وراقبه من المبنى السكني المقابل اللص ماجد الخسيس، تُراهم أين الآن؟ يذكر لقاءه الآخير مع مروان في القهوة بجانب العمارة، وصوت نجاة الصغيرة يدوي في أذنه بـ (أما براوة براوة، أما براوة، دوار حبيبي طراوة أما براوة)... كانت براوة حقًا! وإذا به في اليوم التالي لا يجد مروان، ولم يسمع عنه مرة أخرى. جذبه الحنين وهو يحتسي الحلبة للماضي. قام وقرفص أمام السرير ليجذب من تحته صندوقًا مليئًا بألبومات الصور. قال بصوت قد خرق الصمت:

- والله زمان! أين تلك الأيام؟

جذب ذلك الألبوم ذو الغلاف السميك الأخضر، وفتحه يفرُّ في صوره، فظهرت صورة لفتاة حسناء بيضاء في العاشرة ذات شعر أسود فاحم ترتدي مريلة المدرسة وتمسك بيدها حقيبتها وتبتسم في الصورة ورأى نفسه بجانبها في الصورة وهو صغير في مثل سنها فاشخًا حنكه من فرط السعادة، وخلفهما امرأة مسنة تبتسم في فرح هي الأخرى. قال مخاطبًا الصورة في إعجاب وحنين:

- ياه! ماما فتحية وشذى.. كم كنتِ جميلة يا شذى!

وسرح فيما سرح، عن ماما فتحية، وشذى، وماضيه عنهما ما يذكره...

الصورة الأولى

في مدرسة شلقان الابتدائية المشتركة؛ مدرسة القرية، دلف أدهم لفصله للمرة الأولى غير مرتاح النفس للمدرسة، وقبل مجيئه كان يراوغ أمه عائشة حتى لا تأخذه لذلك المكان الذي لم يألفه. وعندما حاول التأقلم مع الفصل وجد زملاءه الصبيان معاتيه أشقياء عكسه يحب الهدوء والجلوس أغلب الوقت وحيدًا في الفصل خاصة وقت الفسحة، ويتعجب أساتذته كلهم عدا أستاذته (ماما فتحية) كما أحب أن يناديها كأمه من قبله –حيث تتلمذت على يديها أيام طفولتهامن هدوئه الشديد، فهي الوحيدة التي آمنت بهدوئه أنه ينم عن اتزان عقلي مبكر سيفصح في المستقبل عن عقل ذكي أخَّاذ. هكذا كانت تشجعه وتقنع الأساتذة الآخرين بأنه غير متوحد أو ما شابه من تلك الأمور لغرباء الأطوار، ووجده الأساتذة آية في الفهم السريع للدروس، وسرعة القراءة والحساب، وهو لم يشغل باله أي من تلك التي اعتبرها تُرهات، فكل ما شغله هو كيف يتخلَّصُ من مجيئه لتلك المدرسة وأمه وأبوه يصحبه أحدهما إليها صباحًا في السابعة، وذات يوم فكَّر في حيلة للهرب من بُعبُعِ المدرسة، فاستيقظ من صباحه نشيطًا يغتسل ويرتدي

قميصه الأصفر وبنطاله البني، وهو ما لا يحدث أبدًا مما جعل والده يتعجب له، فأمه كل يوم توقظه (رغمًا عن من خلِّفوه) كما تصيح فيه، وهو عادة ما يصيح:

- دعيني اليوم وسأذهب للمدرسة غدًا صدِّقيني.

ولكنها تربح تلك المعركة في النهاية، واليوم لم تحدث أية معركة حيث قام من تلقاء نفسه، وجاءت أمه عائشة لتصحبه للمدرسة، فأمرها محمود أن تبقى هي وتتركه له يصحبه إلى هناك، وفي الطريق أخذ محمود يحدِّث ابنه بكلمات وعظ وإرشاد عن أهمية المدرسة والتعليم كي يصبح عالمًا ينفع الناس بعلمه، وللفتى أذن من طين وأخرى من عجين، وعند وصولهم لباب المدرسة ترك الأب ابنه هناك عند الباب ورحل، فما دخل أدهم المدرسة، ولكنه بقي خارجها ينتظر أباه أن يعود للمنزل وينام، فيرجع لمخدعه هو الآخر كأن لم يكن، ورجع لمنزله بعد قليل، وجاء لينام مجددًا مرتاح البال بأنه قد هرب من يوم دراسي لا يُحبُّه، وإذا بباب البيت ينفتح وأبيه يدخل عليه الغرفة ليفاجئه أنه لم يعد بعد ونام، وأنه قد أحس منه فعِلا كهذا، وهكذا أرجعه للمدرسة مُدخِلًا إياه الفصل – رغمًا عن من خلِّفوه–.

وكانت عزاءه الوحيد في تلك المدرسة ماما فتحية، قد تعدت الخمسين من عمرها، تعمل بالتعليم منذ زمن غابر، أفنت حياتها لصالح الطلاب فلذات أكبادها، وذات يوم سمعت أدهم ينشد وحده في الفسحة في الفصل وهو قابع مكانه في الدكة عينها التي لا يشاطره أحد الجلوس

فيها، سمعته ينشد أبياتًا من الشعر من كتاب اللغة العربية بصوت عذب مليح، فتقدمت نحوه وقالت ببسمة حانية:

- صوتك جميل يا أدهم. ما شاء الله!

- وجدته هكذا يا ماما فتحية ولا أدري لِمَ!

- لكل إنسان هبة من الله -عز وجلو هِبَتُك الصوت العذب الجميل، اشكر الله.

يشكر الله ويحمده على جميل ما أعطى، وقالت له ماما فتحية:

- من اليوم ستُنشد في طابور الصباح في الإذاعة المدرسية.

- حقا؟

- بالطبع، فإن لم تنشد أنت فمَن؟

وهكذا تقدم صباحًا نحو الطابور مع الصبيان والبنات الذين يقومون بالإذاعة المدرسية، فأمسك بالميكروفون وأنشد أبياتًا في حب رسول الله -صلى الله عليه وسلمبصوت عذب يطرب له القلب، فما أن انتهى صفّق له الجمع من التلاميذ، والأساتذة يثنون على ملاحة صوته وعذوبته.

قلَّما وجد رفاقًا يصادقهم، فكلما أحس بالشيطنة من أحدهم بَعُدَ عنه كأن لم يقابله، وذات يوم جاء للمدرسة، وبعد أن أنشد في الطابور، وصعد الطلاب للفصول، فجاء ليجلس بدكته التي اعتاد الجلوس فيها وحيدًا، فوجدها مشغولة، وإذا بفتاة حسناء ترتدي مريلة بنية اللون فوق قميص أصفر. مضطرًا جلس جوارها بالدكَّة، وإذا به تحدثه:

- أنت أدهم صحيح؟

نظر لها بتعجب وقال:

- أجل.. أتعرفينني؟

- ومن لا يعرف منشد المدرسة ذا الصوت العذب؟

مدت يدها تصافحه قائلة:

- اسمي شذى.. شذى حمدان.

صافحها وعلى وجهه الخجل باديًا، فلم يصافح فتاةً من قبل، وعزَّفها بنفسه مع بعض احمرار الوجه:

- أنا أدهم محمود الجميل.

بابتسامة قالت:

- تشرَّفتُ بمعرفتك.

لم يحسن قولًا، وأنقذته ماما فتحية حين ولجت للفصل وأمرتهم بالنهوض هاتفة: (قيام)..

ومن حينها أصبحت شذى صديقته الوحيدة التي رأى فيها بعض نفسه أو كلها، فهي هادئة الطباع صادقة الحديث لا تُعير للعبث الطفولي همًّا، أو خطرًا. ناضجة فوق سنها، جريئة عكس أترابها. اتَّخذت من أدهم وحده صديقًا تستأنس به عن فتيات فصلها بل فتيات المدرسة كلهن، ولأول مرة يتفتح على الحياة البريئة، ويدلف الحب الطفولي قلبه، فإذا به يدافع عن شذى من فتى حاول مضايقتها، ولم يدرِ بنفسه وهو يضربه بقبضته وهي تحاول أن تثنيه عن عزمه بضربه، فوبَّخته ماما فتحية وأرغمته على الاعتذار، ولم تقبل منه سببًا للضرب ثم ذنَّبته عند السبورة، وردعت الطفل الآخر من أن يضايق غيره بتذنيبه هو الآخر بجانب أدهم. تسير شذى إلى جانبه بعد المدرسة تربت على كتفه، تشبِّهه

بأسدها الحامي الذي سيمحق المخاطر التي تواجهها. وتتابعت الأيام، وانتشرت الدروس الخصوصية بالقرية، ولوحظ ضعف شذى في الرياضيات، فذهبت لدرس خصوصي مسائي عند الأستاذ بيومي، وعلم أدهم بذلك، فتعهد لها أن يذاكر لها ما قد يقف حائلًا أمامها على الفهم من المادة التي مثَّلت العفريت لفتيات المدرسة، وأصبحا يتقابلان في منزلها كثيرًا تحت أنظار والديها وهما يستذكران الدروس، وإذا بالأستاذ سيد بالمدرسة يُحفِّز الطلاب لحب المادة، فيقوم بتعليق ورقة على الحائط قد كتب فيها مسألة الأسبوع ومن يحلها له جائزة، فتبادر الطلاب يفهمون الرياضيات لحل مسألته، وكثيرًا ما حلَّها أدهم وفاز بألوان من الحلوى من الأستاذ، ولاحظ الأساتذة تغيُّر حالته، فإذا بهم يجدون دكَّته خالية في الفسحة، ويجدونه يلعب مع شذى في الحوش، أو يستظلان بشجرة يتحدثان تحتها، وفرحت به ناصحته ماما فتحية كثيرًا لكسره الوحدة المدقعة التي كان فيها، وأحب والداه عزمه كل يوم للذهاب لمدرسته من تلقاء نفسه، وأحس هو بأن الدنيا مليئة بالمباهج طالما شذى وماما فتحية بالوجود. وجاء ذات يوم للمدرسة فلم يجد ماما فتحية، فسأل الأستاذ سيد عنها فأخبره بأنها مريضة طريحة الفراش، فحزن كثيرًا، ورفض الإنشاد في الطابور، وقرر وشذى أن يذهبا إليها بعد نهاية اليوم الدراسي لزيارتها، فقد علَّمته بأن زيارة المريض واجبة، ومرت الساعات ثقيلة عليه لافتقاده ركنًا هامًا يُحبُّ أن يركن إليه من أصل ركنين اعتمد على وجودهما وجوده بالمدرسة، وانتهى اليوم الدراسي الثقيل، واتجه مع شذى نحو بيت ماما فتحية،

ورأى هناك النساء تزدحم بجلابيب سوداء، وما راعه بعدها سوى صوت المسجد القريب يُنادى فيه:

- لا إله إلا الله.. المُلك والدوام لله.. توفيت إلى رحمة الله -تعالياالسيدة فتحية طاهر زوجة المرحوم محمد عبد المجيد، والدفنة في صلاة المغرب، والبقاء لله..

وقعت عليه الكلمات وقعًا غريبًا غير مفهوم، وأخذ يسأل شذى:

- ماذا يقصدُ المنادي؟ لقد ذكر اسم ماما فتحية. لماذا؟ ماذا يعني أنها توفيت؟

أجابته شذى في شيء من الحذر:

- يعني... يعني أنها ماتت يا أدهم..

- ماتت! كيف؟

دموعه تهرب منه. لأول مرة يعرف الموت ويدركه في حياته. لقد فقد شجرة استظل بظلها سنوات ستة. فلترقد ماما فتحية الآن في قبرها بعد أجيال خرجت من تحت يديها تدعو لها بالمغفرة والرحمة.

انتقل بعدها أدهم للإعدادية، فحصل الانفصال بينه وشذى، فانتقل هو لإعدادية مبارك للتعليم الأساسي قرب ميدان الحادثة ومستودع أنابيب البوتجاز، وشذى مكثت في إعدادية شلقان للبنات، وهكذا ينقطع عن ركنه المحبب الثاني، ولم يعد يراها إلا لمامًا، وعرف من الحياة ما عرف، فأدرك أن علاقة الحب بين الرجل والمرأة لا تُكلل في حلال الرب إلا بالزواج، فقرر في نفسه أن يتزوج شذى حين يستطيع الباءة حين يكبر كما قرأ في الحديث الشريف، ومرَّ عام عليه، وإذا به يصادف رؤية شذى

في درس اللغة العربية الخصوصي، فسلَّم عليها سلام المشتاق، وتحدَّثا سويًا لدقائق في بئر السلم، وانتهيا من الحديث ببسمات سيذكرها لأيام بل لسنوات. ومرت أعوام أُخَر، وشغلتهم الحياة عن ذكريات الماضي، فحفلت أيامه بالأحداث المناوشة، وإذا به قد تخرج من الإعدادية ليتجه للثانوية، ولم يسمع عن شذى منذ سنين، وربما قد تناساها بعض الشيء. حتى جاء يوم زفاف قريب له، وكانت شذى تُصادق العروس، فرآها مع والدتها ومعهم طفلة صغيرة تلعب، وإذا به يقف بجانب منضدة انتشرت فوقها أطباق الترمس والسوداني التي توزع على المعازيم، فجاءته الطفلة تقول له:

- عمو ممكن طبق سوداني!

فأعطاها طبق السوداني بابتسامة، وراقبها تعود لشذى فرحة هاتفة:

- ماما، ماما، جلبت طبق سوداني يا ماما..

* * * *

يضحك أدهم ملء شدقيه وهو ينظر لصورة شذى وماما فتحية، ظنَّ أن شذى ستصبح من نصيبه، ولكن القدر ارتأى رأيًا آخر. وقلَّب في الألبوم مرة أخرى ليقف عند صورة تحوي مجموعة من الشباب يقف وسطهم، وكانوا في غرفة على المحارة في درس خصوصي يذكره جيدًا، وطفق يذكر هؤلاء الذين بالصورة ماذا كان منهم وما آلت بهم الأمور!

الصورة الثانية

مرت السنون بأسرع ما يكون، وقامت ثورة الخامس والعشرين من يناير، وتنحَّى الرئيس محمد حسني مبارك عن الحكم بعد بيان ألقاه نائبه عمر سليمان، وكان لتنحِّيه فرحة عارمة في ميدان التحرير، وقد عاش أدهم تلك الأيام لا يفهم من الأمور الكثير، ولكنه وجد أمه تبكي لذهاب الرئيس مبارك حيث أحبته، بينما أبوه يشتمه لضنك العيشة على البعض في ظل حكمه، وفي أيام الثورة عاش أدهم جوًا من الإثارة رهيب، ففي الشوارع مساءً افترش الرجال الحصير، ومعهم معاول التصدي للمجرمين الفارين من السجون، وأغلقوا مزلقان الحادثة لبعض الوقت، لا يمر أحد من وإلى القرية إلا وأن يكون من أهلها حقًا، وانتهت الأيام العصيبة، وعادت الطمأنينة شيئًا فشيئًا، وحلَّ عام جديد يحكم مصر فيه جماعة الإخوان المسلمين، وسخط الشعب عليهم بعدها بعام، فجدعوهم من على الكرسي، وانتهى الأمر بخارطة طريق تمشي عليها الدولة بقيادة الجيش.

وأدهم طلعت نتيجته للمرحلة الإعدادية، وحاز على مجموع كبير يُمَكِّنه من دخول الثانوية العامة، وما صدَّق أن أنهى أيامه الغريبة في مدرسة مبارك للتعليم الأساسي أخيرًا، لينتقل بعدها لمدرسة شلقان الثانوية

المشتركة التي لن تحوي -في ظَنِّهسوى من يهتم أن يتَّخذ شهادة تعليمية ولا يريد العبث. الشباب من مبارك للتعليم الأساسي والفتيات من شلقان الإعدادية بنات، واستلم ملفه من مبارك، وخلَّفها وراءه بما فيها من قاذورات شهدها، يذكر أن منها بعض الطلاب قد أخذوا يتناوبون مشاهدة الأفلام الإباحية على هاتف أحدهم، وعندما كشفتهم أبلة روان التي لم تكن قد تزوجت بعد وتعدَّى سنها لم تُوقِفهُم عن المشاهدة، بل جلست وسطهم تمسك بالهاتف تشاهد الفيلم معهم، فنار روان متأججة فيها تود من يُطفِئها. وكانت تحوي جسدًا قصيرًا ولكنه ضخم كجسد بقرة، كل ما فيها مستدير، ويتلذذ الصبية الأنجاس بلمس إليتيها السمينتين بإصبع الوسطى، وقد تزوجت أخيرًا في عام أدهم الأخير بالمدرسة، ولم تعد تعمل بها، فحمد الله على غيابها، وكره الحمامات في المدرسة ككرهه لروان، فالطلاب عادة ما يمارسون الاستمناء فيها، وعبارات قذرة قد كُتبت على الجدران؛ عبارات إباحية إما وصفًا لأجساد المعلمات، أو تمنِّي بمضاجعة إحداهن. وهناك معلم التاريخ الذي تفنَّن في حكي ألوان من قصص ألف ليلة وليلة الحارة خادشة الحياء لهم حتى ذهب الحياء في مهب الريح، والطلاب يطربون لسماع القصص منه، وأدهم وسط ذلك الجو يتكيَّف على مهل، ويتحمل سنوات ثلاث قضاها وسط القرف، وحاز على مجموعه وملفه أخيرًا، وأودعه أبلة ناهد بالثانوية، وذلك بعد أن أوجعت رأسه بالطلبات من تصوير مستندات وشهادات ميلاد نسخًا عديدة، وفي النهاية قالت له بصوت حنون كأم:

- أنا آسفة يا حبيبي والله، لقد أجهدتك بالطلبات جدًا اليوم.

فقال وهو يلهث ككلب بعد التوقف عن العدو:

- لا يهم يا أبلة ناهد، المهم أن أنتهي من الإجراءات القذرة هذه.

وفي الطرقة وهو يسير بجانب طابور للطلاب المتقدمين، سمع امرأة تطلب قلمًا تودّ كتابة شيء في ورق ابنتها التي جاءت لتتقدم معه، فأخرج قلمًا، وأعطاه إياها، فشكرته بجزالة، وإذا بيد تمسكه من ياقته تشدُّه نحو صاحبها، فوجده خميسًا زميله القصير من الإعدادية يقول له:

- أعطيتها القلم لأجل البنت يا ألعوبان؟

- لا والله، ما رأيت ابنتها أصلًا..

فقال خميس ساخرًا:

- لا يحتاج التقرب لبنت أن تُرى يا عم أدهم.

غمز له أدهم وقال:

- أنت الأدرى إذن.

وتركه وجرى. وبعد أيام دلف للمدرسة من بابها الحديدي في يومه الدراسي الأول، وحوش المدرسة يمتلئ بالطلاب الشباب الذين يرتدون القميص الأبيض، وفي اليسار عند مبنى المدرسة الوحيد الفتيات مرتديات القمصان البيضاء والصديري الرصاصي كالبنطال، أو الجيبة يمرحن في جنينة صغيرة يُعني بها الفراش غمري، ولم تكن أول مرة يقابل أصدقاءه، فقد قابلهم في دروسهم الخصوصية التي يذهبون إليها في المساء بعد فراغهم من المدرسة، قابل عزت رمضان الذي لقبوه بالشيخ لحفظه القرآن الكريم وحيازته لإجازة قراءة حفص

عن عاصم، وخالد جمعة المتفوق عقليًا في الدراسة لا يباريه في الشطارة أحد، وسامح فهمي ذو الحواجب اللئيمة، وبكر جمال مُحب كرة القدم فوق أي اعتبار، وسعيد الطيب الطويل القامة الذكي علميًا ربما أكثر من خالد، وخميس فتحي القصير القامة صديقه منذ الإعدادية، ونور علي صاحب النظارات ذو الأخلاق المحبوبة من المعلمين وصبيح عبد الخالق القمحي الهادئ كرياح لينة. هؤلاء أكثر رفاقه الذين اقترن بهم طول دراسته بالثانوية، بعد قليل جاء المعلمون ومنهم أساتذة أدهم في الدروس الخصوصية كأستاذ سليم، وأستاذ إسماعيل، وأعلنوا نفير طابور الصباح، فوقف الطلاب في صفوف أمام العَلَمِ المصري المرفوع على عامود يرفرف. الفتيات على يمين العلم وقبالتهم الشباب على يساره، وأدَّوا التمرينات الصباحية التي ملَّ منها أدهم وشعر بغبائها، وقرأ أستاذ علَّام آيتين من القرآن يفتتح اليوم المدرسي بهما خير مُفتتَح أمام ناظري ناظرة المدرسة الأستاذة ماجدة، وتقدَّم ثلاثة طلاب ليحيُّوا العلم والطلاب يرددون التحية خلفهم، ثم تفرق الجمع كل لفصل يرعاه أستاذ أو أستاذة.

* * * *

الأبلة عطية الله كانت مشغولة في أول يوم مع الطلاب في كل الفصول، كانت تريد من كل فصل فريقًا يقوم بالإذاعة المدرسية، كل صباح فصل مختلف، اختارت أدهم حين سمعت صوته العذب في الفصل بأنشودة قد حفظها عن مدح النبي -صلى الله عليه وسلموهكذا أصبح مميزًا،

فهو الوحيد صاحب الصوت الجميل في المدرسة، وبذلك سينشد مع أي فصل كلما حضَّر قصيدة، أو أغنية، أو أنشودة.

غريب حفل الطابور! كلما صعد الغلمان للإذاعة لم يشعروا بتصفيق البنات، وكلما صعدت الفتيات لم يشعرن بتصفيق الشباب.. بدأت الأحكام العرقية في الانتشار، ولاحظها أدهم، فلا يحب الشباب تفوق الفتيات عليهم، وتبادل الفتيات الأولاد نفس الشعور حقًا. كلهم بُلهاء.. هكذا التنافس في المدرسة! يقتل من يريد إبداء إعجابه بقصيدة ألقيت على مسامعه من فتاة لمجرد أن التصفيق لها سيجعل مظهره مشينًا أمام زملائه الرجال، وكذلك الفتيات إن صفَّقن لفتى ستظن الأخريات أنها معجبة به، وبينهما علاقة سرية ربما. أدهم الوحيد يتشارك الكل في التصفيق لعذوبة صوته في الإنشاد، أو الغناء، فليس كمثله مُنشد.

* * * *

واجه الطلاب مشكلة في بداية عامهم الدراسي، فكما هو معروف لطلبة الثانوية أن أصعب مادة واجهها من قبلهم هي الفيزياء، وتطلَّعوا للقادم يدرِّسها لهم، فلم يجدوا أحدًا قد جاء، واجهوا عجزًا في بادئ الأمر، وبعد أسبوعين جاء لهم ذلك الأستاذ ضخم الجثة الأبيضاني صاحب المنظار المستطيلة عدساته ببذلته السوداء، وكرافتته النبيتي على قميص أصفر، إنه الأستاذ عباس، مدرس الفيزياء الجديد، وبدأ معهم يشرح بعض المصطلحات بالإنجليزية ليجذب بعض الموالين له، وطلبوا منه درسًا خصوصيًا بعدها، وكلَّفهم مئات الجنيهات لأجل حِصَصِه في بيت أحدهم، وهم وحدهم أخذوا أعمال السنة، يعرفهم بالاسم، ولكن

لا يظهر الاسم في ورقة الامتحان التي يُصَحِحها كي يعطيهم درجات أكثر من حقهم، فاتفق معهم أن يبدأوا بحل ثاني سؤال بورقة الإجابة لا أول سؤال كالمعتاد، فعرفهم أثناء التصحيح، وكل الطلاب يومها عرفوا حركته، وقلَّد البعض الحركة، وحاز على الدرجة من حاز. وإذا به يطلب من الطلاب الأموال لتصليح معدات المعمل، وأخذ منهم أنصاف الجنيهات، وحين علم الأستاذ عبد الحفيظ معلم الرياضيات الأول ما فعل وبَّخه وطلب منه الأموال، وأرجعها للطلاب صاغرًا. وأموال أخرى جمعها ليجلب الطلاب أوراقًا حتى ينجحوا في امتحان المعمل، وما تلك الأوراق بجديدة فقد اقتطعها من كتاب خارجي مع أي طالب تجده، وصوَّره صورًا، وباع الوهم للطلاب، وكلما حضر موجه من الإدارة التعليمية شكى له سوء سلوكيات أساتذة المدرسة وإهمالهم، يريد السوء لزملائه وأن يكون الشريف الوحيد هنا، ولكنه فوجئ بالمُوجِّهة تقول له:

- لا شأن لك بتلك الأمور يا أستاذ عباس، فهي لا تخصك.

مُحرَجًا مطأطئ الرأس قال:

- أمرك.

وبعد مهزلة التصحيح التي شكاه أدهم وزملاءه للإدارة بسببها في عامهم الثاني، جاءت لجنة تصحيح خاصة من القناطر الخيرية، وتابعت أفعال الأستاذ، فقد وضع التجارب العلمية غير الموجودة بالمقرر في امتحان المعمل للطلاب، ولم يدروا ما يطلب وما يكتبون بورقة الإجابة، واختيارهم للتجربة التي يجب تنفيذها بالبخت والحظ حيث صنع قرعة

سحب على التجارب، وفي ورق امتحان آخر الفصل الدراسي وجدوا المصائب تتراكم عليه، فقد صحَّح الخطأ صحيحًا والعكس في أوراق أخرى، وأعادوا التصحيح بأنفسهم، ورفعوا تقريرًا للإدارة، ونُقِلَ الأستاذ عباس بعد حين لمدرسة أخرى، ولم يعد له عيش في مدرسة شلقان الثانوية. يمشي بسيارته الزرقاء يشوِّح بيديه مودعًا طلابه، وطالباته على جانبي الطريق كمجنون، والطلاب يضحكون منه ويسخرون وأصبح مثلًا يتندرون به للمعلم السيء، وكان أدهم قد انتقل للصف الثالث بعد رحيل الأستاذ عباس يواجه عام الرعب عام الثانوية العامة.

* * * *

وخارج المدرسة يتقابل الطلاب في الدروس الخصوصية، والحق في تلك الآونة كانت الدروس الخصوصية لازمة للمعلم قبل التلميذ، فالمعلم لا يُحصِّل براتبه من المدرسة عشر ما يقبضه من التلاميذ في درسه الخصوصي، وأصبح بعض المعلمين من لا يمتهنون فتح درس خصوصي يهملون الطالب في المدرسة، إما لقلة الراتب فيسير على رأي (اعمل على قدر الدفع)، وإما لأنه يعلم أن الطالب أمامه يذهب لدرس خصوصي فلا طائل من أن يُتعِب نفسه معه في شرح فائض، والبعض الآخر لا يُسيِّر إلا ما يمليه عليه ضميره الذي يحرِّكه غالبًا الدين والأخلاق. هكذا كان الأستاذ عبد الحفيظ معلم الرياضيات الأول بالمدرسة، والرياضيات خطرها يأتي بعد خطر الفيزياء مباشرة، ولكن معلموها كُثر، خاصة بالقرية، وإذا بالأستاذ عبد الحفيظ يراقب أدهم ورفاقه قد اتخذوا مسلكهم نحو القناطر الخيرية حيث درس الأستاذ حساني الخصوصي، الذي يُلقَّب

من الدفعات السابقة بأسطورة الرياضيات في القناطر الخيرية، وتعجب الأستاذ عبد الحفيظ أشد تعجب من هؤلاء الطلاب، فإن كان العقل لَمَّاحًا للكبيرة والصغيرة لعرفوا ألا مزيد من الرياضيات في القناطر الخيرية، فلمَ يتركون أساتذة بلدتهم من يشرحون بالمجان في المدرسة، ويذهبون للأستاذ حساني؟ وتولدت بينه وبينهم ضغينة وضحت في حديثه مع أدهم بادئ الأمر، فهو ينظر لهم ببعض الازدراء، ويحدِّثهم بإحساس مشمئز مقرف، ولكن أدهم كان ليِّنًا طيِّعًا، يحب الابتسام في وجه الأستاذ، ويشاركه الحل على السبورة، وكذلك صديقه المتفوق خالد جمعة من يهتم أن يكون من أوائل المدرسة دائمًا، وكان يستحق.. وبعد مدة تحوَّلت الضغينة لحب بين الأستاذ والطلاب، واتخذت البشاشة مرتعًا بوجهه الأسمر، وأحب إظهار ما بجعبته من فنيات رياضية ينفعهم بها.

وجاءت أيام أرادت الحكومة منع الدروس الخصوصية منعًا باتًا، فأرسلوا رجال الشرطة يُشمِّعون أماكن الدروس بالشمع الأحمر، والقبض على الأساتذة لتغريمهم، وخاف الأساتذة على أنفسهم؛ فلغوا الحصص في ذلك اليوم حتى يبحثوا عن أماكن أخرى يجتمعون فيها بالطلاب يباشرون معهم دروسهم، ومنهم الأستاذ صلاح معلم الفيزياء بالقناطر الخيرية الذي اتصل بشباب وفتيات شلقان يخبرهم بإلغاء الحصة، وإذا به يفاجأ ببكر جمال قد جاء ينادي عليه بعلو حسِّه في الشارع أمام الدرس الذي جاور منزل الأستاذ:

- أستاذ صلاح..

خرج له الأستاذ صلاح يهمس له من شرفة المنزل:

- ولد يا بكر! لا درس اليوم.

فرح بكر وصاح برعونة:

- أحقًا لا درس اليوم؟

خاف الأستاذ من صوته العالي، فقال له برجاء:

- يا ولد الشرطة ستقبض عليّ يا ولد، امشِ من هنا..

وهكذا نقل درسه للمدرسة النموذجية حيث سمح له ناظرها بالتدريس مساءً حالما تهدأ موجة الدروس الخصوصية، وما مرت أيام من سخط الأهالي على الحكومة حتى سكنت الشرطة، وعادت الدروس الخصوصية لأماكنها.

* * * *

الأستاذ سليم غيور على جهده جدًا في تدريس اللغة العربية، لا يحب من طالب في درسه الخصوصي أن يذهب في نفس الآن لمعلم آخر، فمن عنده يكون الأوائل في المادة، ولم يحب أن يشاطره في الميزة أحد، ويسودُّ اليوم مُتكحِّلًا لو كان الطالب متفوقًا ويذهب لمعلم آخر، يشعر الأستاذ سليم بأن كفاءته قد نَقُصَت، وذلك ما جعل الطالب يذهب لآخر في علم النحو خاصة. أخذ الأستاذ دفعة أدهم يربيهم على اللغة منذ بدايتهم للإعدادية حتى انتهاء بالثانوية العامة، وأدهم لا يشتكي من شيء منه، فهو يوقن بأن الطالب الضعيف لن يُقوِّيه المعلم مهما كان علَّامة، وأنه إن ضَعُفَ في ركن فذلك تقصير منه، وكثيرًا سمع أدهم الأستاذ سليم يقول عبارته التي ملأ بها ملازمه التي صنعها ووزعها صاحب المكتبة كنصائح: (الطالب الناصح من يلوم نفسه على التقصير،

والعلم لا يحمل المُغفَّلين). يُربِّيهم على اللغة، ونسي أن يُربِّيهم على الأخلاق...

وكان الأستاذ شابًا طويل القامة، سريع الغضب عند الخطأ في أي شيء يتعلق بالنحو والصرف، وكان أسلوبه في الشرح لا يتطرق للفلسفة التي يبغضها الكثير، كان يحب السلاسة والبساطة، وكان لبساطته صعوبة عند بعض الطلاب كذلك. كان لا يحب من يتغيب من درسه أبدًا، فواظب أدهم على عدم التغيُّب إلا فيما صَعُب عليه، وكان الأستاذ يلتمس لطلابه الأعذار كثيرًا. وكان سامح فهمي ممن يجعلون الأستاذ يطير لُبُه، فقد كان الأستاذ سليم يحب (سامح) أن يكون برفقته في الدرس خطوة بخطوة، وألا ينسحب من نفسه ليستذكر دروسه في المنزل، فكان سامح يتغيب في آخر أيام الفصل الدراسي كامل الأيام، وكان الأستاذ ينهاه في كل مرة يفعل فعلته من القدوم مرة أخرى للدرس، ولكنه يجئ في الفصل الدراسي التالي، فيُدخله درسه خوفًا على مصلحة الفتى التي لا يعلمها –الفتيجيدًا. وفي نهاية الصف الثاني الثانوي، حدثت مشكلة بسبب التغيب الكثير وعدم التقدير للحصص، فقال الأستاذ سليم بسأم:

- حسنًا، هذه النهاية، نهاية دروسي للثانوية العامة، انتهت وبلا رجعة..

وكان عقابًا بعدم تدريسه لهم في العام القادم، وهو العام الأهم على الإطلاق الذي سيحدد مصير كل طالب إلى أي كلية سيلتحق حسب مجموعه. وانتهى الصف الثاني الثانوي، واعتقدوا أن الأستاذ مثلما فعل مع سامح فهمي سيعيد درسه مرة أخرى، وكان الصف الثالث على

مشارف الأبواب، وبدأ الكل يسعى ليعرف في أي درس سيلتحق، وهنا بدأ الطلاب يذهبون تباعًا للأستاذ سليم فيرفضهم، وكان خالد جمعة ذو صلة وثيقة بالأستاذ، فذهب إليه، وسأله عن الدرس، فأخبره الأستاذ بموعد الدرس دون غيره.. حدَّث أدهم خالدًا بعدها عن الموضوع، فسأله:

- ماذا سنفعل في درس العربية؟

- حدثتُ الأستاذ سليم..

- وبمَ أخبرك؟

- قال لي على ميعاد الدرس، واستسمحني في كتمانه.

تعجب أدهم جدًا، لماذا لا يريد إعطاءهم الميعاد إذا كان الدرس سيقام؟ قال خالد:

- اذهب له وحدِّثه ولن يعرض عنك بالتأكيد.

وفي المساء ذهب أدهم إلى الأستاذ في شارعه الذي كان مظلمًا إلا من ضوء مصباح معلق على عامود الكهرباء في أول الشارع، وجد الأستاذ بالمنزل، وقد أظلمه. ربما كان نائمًا. طرق الباب مناديًا عليه:

- أستاذ سليم. أستاذ سليم.

وخرج الأستاذ سليم بوجه كاشر، وعندما رآه زالت عنه كشرة وجهه، وابتسم له قائلًا:

- كيف حالك يا أدهم؟

- كيف حالك يا أستاذ سليم؟

وحدث سكوت بعدها لثوانٍ، ثم قال أدهم مبتسمًا حين ابتسم له الأستاذ:

- ماذا؟
- ماذا تعني؟

بتوتر سأله:

- الدرس متى؟
- لن يكون هناك درس..
- ولِمَ؟
- الإنسان تعب والله، فقررت أن ألغي الدروس كلها..

فكر أدهم سريعًا، ربما هو اختبار منه. فقرر المماطلة:

- يا أستاذ سليم كبَّر عقلك، أَبعد كل تلك الأعوام ستلغي درسك؟ وخيرك علينا كثير فلا تبخل علينا هذا العام!
- والله تعبتُ يا بني..
- أقدر تعبك، فأرجوك أعِد الدرس.

صمت برهة ثم قال:

- حسنًا تعال الخميس، قد تُفرج.
- حسنًا، مؤكَّد إعادة الدرس؟

مبتسمًا قال الأستاذ:

- ادعُ ربك..
- ربنا يسهل، سلام عليكم.

ورحل أدهم، وهو يعلم بأن الأستاذ يخدعه. وبعد ساعات ثلاث قابل رفاقه عند شارع الأستاذ ينتظرون خروج عزت رمضان من عند الأستاذ سليم حيث يجادله هو الآخر، وكان عزت عصبيًا بعض الشيء، فخرج

يتعلَّم وجهه بعلامات الغضب، ولم يشأ أدهم أن يستفسر عما حدث بينه وبين الأستاذ سليم، فيعكر المزاج. ولكن خالد حكى له ما لم يعلم، فعزت قد عرف أن الأستاذ سليم قد أعطى ميعاد درسه للفتيات فقط، وذهب يطلبه منه فلم يعطه إياه، فأخذ عزت يقول حديثًا صداميًا كأن الأولاد أفضل من البنات في التحصيل في درسه بغض النظر أن أوائل المدرسة هم الفتيات. التنافس بين المراهقين في التعليم حاد فعلًا. وفي يوم الخميس، ذهب أدهم إليه مرة أخرى، فطرق الباب، ولم يكن الأستاذ موجودًا بالمنزل، همَّ ليرحل، فوجده قادمًا على أول الشارع، وقال له من بعيد ممثلًا دور المغتبط:

- حللتها لك يا عم أدهم.

- حللت ماذا يا أستاذ سليم؟

وقف قبالته أمام الباب، ورد عليه:

- وجدت لك درسًا، حجزت لك أنت وعزت وخالد وسامح وبقية الشباب أصحابك مجموعة عند مسعد سبع الليل في القناطر.

كاد أدهم ينفجر ضحكًا، فعلى الرغم أنه يعلم ما حدث بينه وبين خالد، إلا أن صديقًا له من القناطر أخبره بأن مجموعات مسعد قد امتلأت عن آخرها، ولم تتبقَ أية مجموعة يخلو بها مكان لنفر زائد، فلم يكن للأستاذ فعل هكذا الأمر. قال له:

- كلامك غير صحيح يا أستاذ سليم.

ضحك الأستاذ، وقال:

- وكيف عرفت؟

مشاكسًا رد عليه:

- لأنني أذهب عند مسعد سبع الليل.

صُدِم الأستاذ لقوله:

- حقًا؟

ضحك أدهم، وقال بسرعة:

- كلا أمزح والله، رفاقي لن يذهبوا لدرس القناطر.
- فإلى أين إذن؟
- ولا أي مكان، أنا متأكد. أُقابلهم يوميًا ولا نية لأحد منهم.
- حسنًا دعك من مسعد، ما رأيك في الأبلة سميرة؟

سئم أدهم من المماطلة فقال:

- أستاذ سليم! والله لن أذهب لدرس آخر، إما هنا أو أمكث في المنزل.

صمت الأستاذ برهة ثم قال:

- حسنًا يا أدهم، الميعاد يوم الخميس القادم الساعة العاشرة مساء.
- حقًا؟
- أجل، كنت أختبرك لأعلم ولاءك.. عزت جاء لي وأزعجني، قال جملتين قدامي سيئتين.
- اعذره يا أستاذ سليم، عزت طيب ومسكين، ولكن لسانه يحتاج أن يُلسع.
- أعلمه جيدًا، وأنه لا يقصد ما يقول فلم أرد عليه.. لا تخبر أحدًا بالميعاد.

ورحل أدهم، وقام بتمثيل دور الفنان الصامت طوال الأسبوع، وفي يوم الخميس التالي، وجد معظم طلاب البلدة كلها بالدرس، وقد عرف الكل ذلك الميعاد. ولله أوقات الغداء طول هذا الأسبوع! فقد لقي من الزملاء كلامًا شديد الأثر عن إخفاء الميعاد عنهم على الرغم من معرفتهم إياه من غيره.

* * * *

لم ير أدهم مشاغبًا كجلال عمار، وجلال ضخم الجثة قوي العضلات ثخين العقل. يذكر أدهم عنه حوادثه مع الأساتذة في مدرسة مبارك، وخاصة يوم أن ألصقَ أحد ملصقات (القص واللصق) بمؤخرة مُدرِّسة الرسم، ففُصِل من المدرسة أسبوعًا، ويوم آخر ضرب فيه أستاذ الزراعة، وحصل على بِشلة فوق عينه اليسرى، قام والده بكعِّ الجنيهات في عملية تجميل لإخفائها، وكم فرح ناظر المدرسة بانتهاء فترة جلال فيها بعد سنوات ثلاث. وها هو قد جاء لمدرسة الثانوية يُكمِل مشواره التخريبي، التعليمي في نظر أبيه صاحب ورشة الأخشاب.

وكان أدهم في الحوش ذات يوم وقت الفسحة يقف ورفاقه يتحدثون عما مرُّوا به في فصولهم، والفتيات بالجنينة يزقزقون كالعصافير، وفجأة وبدون مقدمات استلمت رأس مديحة كرة بلاستيكية مملوءة بالماء، طرطش الماء من على رأسها على الفتيات حولها، وقام بتوسيخ طرحتها وقميصها الأبيضين، ومريلتها وبنطالها الرصاصيين، ونظرت للأعلى لترى أن جلال هو الرامي، ولم يكن أحد من الطلاب الشباب من سمَّاهم المعلمون رجالًا يوم أخرج كل منهم بطاقة رقمه القومي ليجرؤ

أن يتحدث ضد جلال خوفًا منه، ومن فتونته وعضلاته، ولكن مديحة لم تسكت، فلديها لسان صاغته الشياطين كما وجهها الأبهى في المدرسة صاغته الملائكة، شرشوحة من بولاق، فشيخة الفاه، أخذت تردح مصفِّقة بيديها:

- إن كان للناظرة وللمعلمين شخصية لما حدث أن رمى عليَّ صعلوك كرة ماء، أبو أمكم كلكم!

نكص جلال عن عقبيه وأخفى وجهه عن الكل حينها، فقد هيّجت الفتاة المعلمين عليه، وشعر أنه يجب عليه الهدوء قليلًا، وهي المرة الأولى له يفكر بطريقة مختلفة.

وبعد أسبوع عاد لرشده، وألقى من الطابق الرابع دكة بمقعدها من أحد الفصول، ونزلت تتهشم أمام طالب فزع لنزولها، وحمد الرب أنه لم تنزل على رأسه، حمد الله أنه لم يمت، وجلال يقهقه من فوق غير مبال.

جاء ذات يوم بمقص في درس الأستاذ سليم، وأخذ يقص قميص زميله من الخلف دون أن يشعر، وأخذ يقهقه كعادته لفعله، والفتى مسكين يقول بهدوء مشوب بالحزن:

- لمَ فعلت هذا يا يوسف؟

الطبيعي أن يضربه، ولكن الفتى ليس له باع في ضرب الآخرين. وجاء الأستاذ سليم المعروف عنه شدته، وضرب الشباب بالعصا مهما كبروا في درسه يقول لجلال بضيق:

- لن أفعل لك شيئًا، ولكن بالله عليك أخبرني، ما حكمتك مما تفعل، ماذا يدور بعقلك حين تريد الخراب؟

لا جواب من يوسف، ولا أمل فيه، فبعدها بأيام نثر على أول الشارع أوراق كشاكيل زملائه قد قطّعها رغمًا عنهم حينما كانوا بدرس الفلسفة الذي بالطابق العلوي لدرس الأستاذ سليم، ومعلم الفلسفة قريب الأستاذ سليم قد جلبه إكرامًا لطلاب القرية بدلًا من الذهاب بعيدًا في القناطر الخيرية وضواحيها، وهو رجل أشد طبعًا من الأستاذ سليم، وجسده مُعضّل، ويخاف منه الطلاب ومنهم جلال أشد الخوف. وجاء ساكن البيت المثورة أمامه الأوراق يزعق للأستاذ سليم، يهدده بالذهاب لمركز الشرطة وكتابة محضر فيه، والأستاذ سليم طيب أخذ يهدئ جاره ويتأسف له، ولكن الجار غَلا في التهديد والوعيد، فنزل له الفيلسوف، وصاح:

- من ابن الوسخة الذي يزعّق؟

فخاف الجار عند رؤيته كتلة العضلات أمامه، ووجده يقول بعد الشتيمة:

- إن كان لك مظلمة تعال واشتك، فآتي بمن ظلمك أُعلِّقه في الجنش هنا على الباب، ولكن إن عَلا صوتك سأُعلِّقُكَ شخصيًا.

فخاف الجار المسكين ذو الصوت ورحل مسرعًا، وصعد أستاذ الفلسفة يُقيم الحد على يوسف، فرفعه بكرسيه من على الأرض بقوة في الهواء، وأخذ يسبه ويلعنه ثم تركه يهوي من غِلٍّ على الأرض. هذا مثال يذكره أدهم عن مُحِبِّي الشغب وهم قلة...

* * * *

انتصف العام الدراسي، وجاء عام ميلادي جديد يتفاءل الناس بكونه عام خير، واستقبله الطلاب بالدعاء للنجاح في الامتحانات القادمة لا ريب فيها في شهر يونيو، وقد حلت مشاكل بالوزارة جمة، فتغير وزير

التعليم على إثرها، وجاء غيره ليغير نظام امتحانات الثانوية لتقوم بأوراق البوكليت حيث السؤال والجواب في نفس الورقة. خبر كهذا قد ورَّع الطلاب، وأدهم قد حواه شعور باللا مبالاة لتلك السنة خاصة بعد الخبر، فأهمل قليلًا في دروسه بعض الشيء، وكان صديقه خميس ينصحه بعدم الإهمال، فهو عام المصير، وجاءه ذات يوم يريد صحبته في الطريق لدرس الأستاذ حساني، فذهب هو وخميس وخالد، واستقلوا التوكتوك من على الطريق العمومي، وجرى بهم ذلك السائق الشاب الأهوج بسرعة مهوولة، حتى ما وصلوا لانعطافة كوبري النيل تعثّرت عجلات التوكتوك، وقابلهم في نفس الآن توكتوك آخر، فارتطم الاثنين ببعضهما، وانقلب التوكتوك الخاص بهم على جانبه وهم يصرخون مفزوعين. حاول أدهم وخالد الخروج من الفتحة العلوية، وأخرجا بعدها بمساعدة السائق (خميس) الذي لم يتحرك أو يقل شيئًا، وأدهم يسب السائق الأرعن، وخالد يتفقد خميس الذي سالت الدماء من رأسه التي شُجَّت بقوة وهو قاطع النفس، جاء التوكتوك الآخر، فصاح به أدهم:

- نريد الذهاب للمشفى بسرعة..

حملوا خميسًا للتوكتوك الآخر، وجرى بهم نحو مشفى القناطر، وأدهم يحاول تضميد جرح خميس، ويهتف في أذنه أن يستيقظ، ولكن لا جواب يصدر منه. وفي المشفى حملت الممرضات خميسًا على محفة، ونادوا الطبيب سريعًا للحالة الطارئة، فجاء يهرع يتفقد خميسًا أمام ناظري

أدهم وخالد المرتعشين جراء الحادث، ومرَّت ثوانٍ ثم نظر بعدها الطبيب للساعة المعلقة على الحائط، وقال للممرضات حوله:

- موعد الوفاة الساعة السابعة مساءً..

لم يصدق أدهم أذناه حينها، وخالد بجانبه لم يتحمل الجملة، فسقط على ركبتيه يبكي، وأدهم يسأل الطبيب:

- ماذا تقول يا دكتور؟

فرد عليه الطبيب:

- زميلك في ذمة الله، آسف لمصابكم.

- ماذا؟ ولكن..

لم يستطع أدهم النطق، وسار نحو الجثة يهتف ودموعه تنهمر على خديه:

- خميس! خميس! استيقظ لنذهب لدرسنا..

فقال الطبيب للمرضات:

حضِّروه للدفن، (ثم لأدهم): ولتتصل بعائلته يا فتى، البقاء لله..

وذهبت الممرضات بالجثة يُعِدُّونها للدفن، وتمالك أدهم نفسه، وأخرج هاتفه، واتصل بأهل خميس ليجيئوا ويشهدوا الفاجعة. الموت مفجع للقلوب، وخاصة إن كان الفقيد شابًا لم يدخل دنيا. في المسجد الغربي أثناء صلاة الدفن لم تتحمل الأم فقدان ابنها خميس، أخذت تبكي بحرقة وتصيح، تتذكر تفوُّقَ ابنها الدراسي وسماحته وطيبته، والأب داخل المسجد لم يتحمل أن يرى ابنه داخل النعش مكفنًا وسيُصلِّي عليه أربع دون ركوع، جرى نحو النعش يبكي عنده ويداه تتشبثان به، يصيح ناظرًا لسقف المسجد:

- أنت لست الرب الذي أريده! أنت لست ربنا..

ومن خلفه الناس يهدئونه:

- استغفر الله العظيم ولا تقل هكذا قول، واقبل بالقضاء والقدر، ولله حكمته.

وخطب الشيخ ليهدئ من روع الأهل، وأن ما فعله الأب كان بدافع الحزن فلا ذنب له، وليستغفر ربه الغفور الرحيم، وليلهم الله الأهل الصبر والسلوان، وودَّع أدهم عند المقابر صديقه خميس الذي التقم جثته قبرًا بين تضاعيف القبور كما ودَّع قبلًا معلمته ماما فتحية الذي أحبها كأمه. وسمع الأستاذ حساني بالخبر، فوضع صندوقًا كرتونيًا للصدقة على روح المتوفى في درسه. وعلم أدهم أن الحياة قد تقصر به، فليعمل الإنسان لآخرته كأنه سيموت بعد قليل.

* * * *

نظام حصة الأستاذ سليم أنه يقوم بتسميع ما حفظه الطلاب عن الحصة السابقة، فشرح ما هو جديد، فحل بعض التدريبات على القديم. وفي التسميع يمل ممن لا يحفظون ويضيعون وقتًا من الحصة، قد تصل الحصة لأكثر من ساعتين، ويرجع الطلاب لبيوتهم بعد منتصف الليل، ولم يدر الأستاذ حلًا للتسميع البطيء هذا، فذهب عزت يومًا له وقال:

- ما رأيك يا أستاذنا أن تُقيم مجموعة للمتفوقين؟

- مجموعة للمتفوقين!

- أجل يا أستاذ سليم، مجموعة تحوي المتفوقين منا فقط، من سيحفظون في يُسر ويسمِّعون ما حفظوه في سلاسة.

فكّر الأستاذ مليًا ثم قال له:

- دع هذا الأمر فيما بعد أُقرر فيه.

ورحل عزت، ومرت الحصص في الأيام التالية كما هي، وذات يوم طلب الأستاذ منهم أن يحلوا بعض تدريبات النحو لأجل حصة الصباح التالية، وجاؤوه صباحًا، فطلب منهم رؤية الحلول، وفوجئوا به يمسك بعصاته يود ضربهم على عدم كتابة الحل بالكشكول واستسهلوا الحل بالكتاب في لخبطة وسط الجمل المنثورة دون تنسيق، وهو كذلك دائمًا بعصاته يضرب من يعصي له أمرًا أو لا يحفظ، في زعمه أن عصاته فيها شفاء للطلاب، وضرب منهم الواحد تلو الواحد ضربًا غليظًا في برودة الشتاء، وجاء ليضرب عزت الذي خشيَ العصا، وكان لسانه ينفلت منه دائمًا كلما أصابه مس من خوف أو حرج، فقال للأستاذ حين استلم العصا على راحة يده فآلمته:

- كفى غباءً أثناء الضرب..

صُعِق الأستاذ للإهانة التي جاءت من عزت، فقال له بغضب:

- إن لم يُعجبك غبائي فارحل.

فرحل عزت وهو ينفخ، والأستاذ في غضبة تكاد تمحق من بالدرس، حتى أن العصا اشتدت على بقية الطلاب بعد عزت. وفي خارج الدرس كان عزت يقف يدعك يديه في ملابسه يدفئهما، ونظر بعيدًا بعيدًا ليرى أدهم خلف غبشة ضبابية قادما يجري مهرولًا؛ فقد تأخر عن الدرس، فتوقف عند عزت، وقال له:

- ماذا هناك يا شيخ عزت؟ لمَ تقف بالخارج؟

- لا تسلني، فأنا في شدة الغضب الآن..

اندهش أدهم لغضبه، ووجده يقول:

- أحللت النحو بالكشكول؟

- كلا، حللته بالكتاب.

- إذن فلا تدخل، سيضربك بقسوة.

- ولكنه لم يطلب الحل بالكشكول!

- تعالَ نذهب نحضر إفطارنا، ونذاكر معًا في منزلي.

- والله يا شيخ عزت كان نفسي، ولكنني قد قطعت مسافة حتى الدرس، ولن أُضيِّع الحصة خشية ضربة عصا غليظة.

التفت عزت بعيدًا عنه ليرحل وهو يقول:

- حسنًا كان الله بعونك.

ودخل أدهم الدرس، وجلس يرقب ما يحدث في صمت مرعب حلَّ على الطلاب أثناء ضرب الأستاذ سليم لسعيد الطيب، فقال سعيد بحدة:

- ولكنك لم تطلب الحل بالكشكول.

فقال له الأستاذ:

- وهل هناك حل منحكش هكذا لطالب ثانوية عامة يرغب بكلية الطب مثلك؟

نفخ سعيد زفيرًا، ثم قال بعد أن انتهى من الضرب:

- ليكن بعلمك، لا يشرفني أن تكون أستاذي ولو كنا بموقف آخر لما حدث لك خير.

انصعق أدهم كالأستاذ سليم من قول سعيد الفارغ، سعيد الذي ربَّاه الأستاذ منذ الإعدادية في درسه على اللغة العربية، ها هو يرد الجميل، أو بعضًا منه، وقال الأستاذ بغيظ:

- لما حدث لي خير! ماذا ستفعل؟ ستقتلني أم ماذا؟

لم يرد من سعيد سوى:

- اكتفيت بما قلته.

ولكن الأستاذ قال:

- الموضوع لا يمكن السكوت عليه..

وأخرج هاتفه يتصل بوالد سعيد، وقال له:

- يا عم الطيب! ابنك يهددني في درسي، يهدد معلمه ومربيه، يقول لي: (لن يحدث لك خير)، ماذا سيفعل يا طيب؟ أيخرأ أمامي في الشارع، أيؤجر البعض لضربي بالطوب من خلفي، أم يخطف ابني ليلًا؟ لتتصرف معه يا سيدي.

وأنهى مكالمته بأن قال له والد سعيد ما أحب أن يسمعه، ودارت الدائرة –دائرة الضربكما هي، وانتهى الأستاذ منهم فجلس على كرسيه، فوقف أحدهم يقول:

- أين العدل يا أستاذ؟

فسأله الأستاذ:

- ماذا تقصد يا غلام؟

أشار الفتى لأدهم الجالس بقربه وقال:

- أدهم لم ينضرب مثلنا.

وأدهم يسب ويلعن الفتى للوشاية به في سره، وجاءه الأستاذ ليضربه ضربتين بخفة غير معهودة..

* * * *

وعرف عزت سوء فعله في نفس اليوم، وقابل أدهم يخبره باقتناعه أنه قد أخطأ، ونصحه أدهم بالذهاب للاعتذار للأستاذ سليم. ولم يسكت الأستاذ سليم على فعلتيهما؛ عزت وسعيد، فشهَّر بهما في كل مجموعة من الطلاب جاءته ذاك الأسبوع، وأخذ يصيح:

- الشيخ عزت حامل كتاب الله -كرَّم الله وجههيقول لمعلمه: (كفى غباءً).. والمتفوق المجتهد سعيد يراني لا أرقى أن أكون معلمه ويقول لي: "ما كان ليحدث لك خير" يهدد أستاذه من علَّمه وربَّاه! اسمعوها مني وعوها جيدًا، قد يصير طبيبًا مجتهدًا ناجحًا، ولكن لن يرتضي خُلُقَه الناس، لا يرضى الناس بالمتعالي؛ من أنفه بالسماء.

وفي المساء قابل خالد سعيدًا، فسأله:

- لمَ لَمْ تأخذ العصا وتسكت؟
- ولمَ أنضرب وقد كتبت الواجب؟ وهو لم يأمر بكتابته بالكشكول.. ولقد غاظني بشدة حين علمت أن زينب علوان قد فعلت مثلنا ولم تنضرب.

وزينب علوان فتاة مجتهدة مثابرة دائمًا ما تكون الأولى على المدرسة، ودائمًا ما يقارن سعيد وعزت نفسيهما بالفتيات الأوائل، فقد كان الأوائل دائمًا تسع فتيات وخالد معهم، عزت يرى أنه أحق بأن يكون بترتيب الأوائل أكثر منهن، وألا تظن أي فتاة كانت في الترتيب أنها

تفوقه لا سمح الله، ودائمًا ما يقول سعيد: "سينقلب ترتيب الأوائل هذا العام، بالتأكيد سينقلب.. فارتقب إنَّا مرتقبون."
وسأله خالد:

- وماذا فعل معك والدك عندما رجعت إليه؟
- دخلت البيت، فوجدته جالسًا على الأريكة بالصالون، فقال لي: (ادخل نم فربما أنت متعب).
- ماذا؟

* * * *

تنضرم نار الحب فجأة، وتنتشر شيئًا فشيئًا كالنار في الهشيم، يجثم الحب على القلب والبني آدم ليس على باله، ربما لقاء روحين تائهتين، هكذا كان أدهم حين رآها أول مرة تدلف المدرسة، تلك السمراء التي أخذت بلب قلبه تلقيه في غيابة الحب، أخذ يتبعها بناظريه طوال أيام الثانوية، استخبر من تكون، فعلم أنها نسمة عاطف الحكيم، نسمة! لوقع الاسم على أذنيه وقع السحر، يسرح ليلًا يذكرها وهو ينظر لنجوم الرب في السماء، ولكن هل يحدِّث الطيبة التي لم يشعر منها سوى تَفتُّح زهرة القلب ويعترف لها بحبه، وتذكر أنه قد سمع الشيخ عبد الباسط يومًا يقول في أمسية بمسجد الإحسان:

- الحب مشروع عند الله -سبحانه وتعاليوليس على الإنسان سوى الحفاظ على قلبه من الوقوع في الشرك، وقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لم يُرَ للمتحابَّين أخيرَ من الزواج)، فمن استطاع منكم الباءة فليتزوج مَن أحبَّ فورًا، دون الوقوع في المعاصي.

ولكنه لا يستطيع الباءة بعد وهو يتعلم ويأخذ مصروفًا من أبيه.. ليس بعد يا أدهم.. إذن، فلتغلق على قلبك الباب حتى حين.

وأصبح كلما يلقاها يكبت جماح نفسه قدرما يستطيع، حتى جاء العام الأخير في الثانوية، فلم يعد يذهب مدرسته ولم يعد يرى وجهها إلا لمامًا كلما خرجت قبله من درس الأستاذ حساني..

وذهب يومًا درس الأستاذ سليم بعد واقعة عزت وسعيد، ووجد عزت المطرود قد جاء للدرس، فرفع الأستاذ سليم له إصبعه نحو الباب أن يخرج قائلًا: (للخارج)، فما رحل عزت، وأصرَّ على الاعتذار، فطلب الأستاذ أن يأتيه بأبيه، وود تقبيل يد الأستاذ، وأنه قد أخطأ بالكلام، وأن أباه إن علم سيقول لحضرتك يا أستاذ: (اكسر وسأُجبِّس)، فلانَ له الأستاذ، وأعطاه ما يريد من العفو، وانتظم بعدها في الحصص المسائية حيث شعر بالشؤم من حصص الصباح. وفي المساء قال الأستاذ سليم:

- ستُقام مجموعة المتفوقين غدًا في السادسة صباحًا، وستضم خالد جمعة، وأدهم الجميل، ونور علي، ومن الفتيات زينب علوان وزهراء مدني.

وأضاف:

- وتم اختيارهم، وسيتم اختيار من ينضم لهم طبقًا لنسبة الأخلاق والاحترام والتفوق الدراسي.

وربت على كتف عزت قائلًا:

- صح يا باشا؟

فلم ينطق عزت حرجًا، وهو الذي عرض عليه الفكرة، فانقلبت عليه. واستيقظ أدهم صباحًا يذهب لمجموعة المتفوقين تلك مع خالد ونور،

ودلف الدرس ليفاجأ بها تجلس أمامه.. نسمة! تسارعت دقات قلبه فجأة، وحاول الهدوء بعض الشيء، وألقى السلام عليها وزميلاتها اللائي تعدَّين الثلاثة، وردُّوا السلام في فتور الصبح، وبدأ الأستاذ سليم يُسمِّع لهم ما حفظوه من نصوص، وقراءة، وقصة، وأدب، وسأل نسمة سؤالًا فلم تعرف إجابته، وحان الدور على أدهم الذي كان يُركِّز مع وجهها وقسماته التي شكَّلها الخلَّاق فلا تسر سواه هو المُحِب، تأمل وجنتيها المشربتين بحمرة الخجل، وخديها المليئين بالحيوية ونضارة الحياة، وشفتيها الورديتين تحويان رحيق الزهور، وعينيها البقريتين آيتين عن أمل وتطلُّع. وتلعثم في الإجابة حين سُئل فلم يكن تركيزه أن يجيب بقدر ما كان يريد أن يملأ عينيه من نسمة، ومشت الحصة وانتهت في أقل من ساعة أنجزوا فيها ما أرادوا إنجازه، ورحلوا فرحين مغتبطين ينامون حتى الظهر ليباشروا بقية دروسهم بعده، وذهب أدهم لدرس الأستاذ صلاح للفيزياء، وهناك قال سعيد لخالد ممتعضًا من أفعال الأستاذ سليم:

- لا أدري لمَ لمْ يخترني وسامح للمجموعة؟! ألسنا من المتفوقين؟ ألا نجيب كل أسئلته بالدرس؟

فقال خالد:

- لا أدري لمَ! وأنتما الأحق بالمجيء للمجموعة حقًا.

وانفرد أدهم بخالد في درس الأستاذ حساني، فقال له:

- لا أظن أن المجيء للمجموعة يتطلب التفوق يا خالد.

- فماذا إذن؟

- الأخلاق واحترام الأستاذ لا تهديده، وأنت تعلم.
- آه صحيح قد نسيت!

وقد رقَّ الأستاذ سليم بعدها بيومين لتفوق سعيد، فقال له:

- تعال غدًا لمجموعة المتفوقين.

فنظر له سعيد بقرف نظرة تعالي وقال:

- لا أريد المجيء.

وتركه وانصرف..

ومرت الحصة وراء الحصة، والفتيات يزددن ويزددن بالمجموعة، ودبَّ الخلاف بين إحداهن والأستاذ لعدم التزامها بالحفظ بضع مرات، فقرر قرارًا لم يرجع فيه، وألغى المجموعة ليعود كل إلى حالته قبل بزوغها.

* * * *

"أُولد من جديد كلما أراه عند الأستاذ سليم، ذلك الفتى الجميل الذي خطف قلبي لأول مرة رأيته فيها، شعور غريب غمرني حين علمت بوجوده في الدنيا، لمَ يا تُرى؟ أهو الحب؟ ربما، ولمَ لا؟ أنجذب له في كل مرة يتحدث بالحصة، أضحك لضحكه، وأرتجف من البرد حين يلسعه، أدبه وشيمه تكفيانه لانجذابي له، وهناك العديد مثله كطبعه الهادئ، ولكن القلب لم يَمِلْ سوى له وحده، تراك يا أدهم تشعر بنفس الشعور نحوي؟".

أنهت نسمة ما كتبته بدفتر مذكراتها التي تُخبِّؤه عن والدتها في جيب حقيبتها السري، وأسدلت الظلمة على غرفتها؛ لتلقي بجسدها على

السرير تطلب النوم، ولم يُلبِّ النوم نداءها بسرعة كما تريد، فقد ظل فكرها منشغلًا بأدهم، وتسأل نفسها هل يحبها حقًا؟

* * * *

تمادى سعيد في تمرُّدِه ضد الأستاذ سليم، وتبعه سامح في مسعاه، فذهبوا إلى ما لا يرتضيه الأستاذ ويمقته، وسلكوا طريقًا نحو مُعلِّم آخر في النحو والبلاغة ضاربين بثقة الأستاذ عرض الحائط، وقالوا عنه لا باع له في البلاغة والنحو، وها قد بقيَ شهر واحد على المجزرة؛ امتحانات الثانوية العامة، وتشاجر عزت معهما ذات يوم، وقال لهما:

- يرى الأستاذ أن مجهوده في تعليمنا يضيع إن لجأنا لغيره مَن لا حاجة لنا به.

فرد سعيد:

- ما فعلنا سوى الصواب، فمصلحتي أهم هذا العام، ولن ألتفت للأستاذ ومعتقداته.

وقال سامح:

- ينقصه بعض البلاغة، ونحن يجب أن نُلِمَ بكل مقاصد المقرر.

فقال عزت:

- ولكنها ليست المرة الأولى التي يُدرِّس بلاغة الثانوية العامة يا عزيزي سامح، فهو متمرِّس يعرف كيف يوضع الامتحان.

فقال سعيد:

- هذا تملُّق لا غناء فيه وسترى في الامتحان الغاشية.

- حسنًا، سنرى.

ولقد علم أدهم حينها فعلتهما، وكتمها في نفسه أسبوعًا، وأخبره سامح بأن هناك بضع فتيات قد اتَّخذن معلمًا آخر كذلك، والفتيات يُشهد لهن بالتفوق، تخيَّل أدهم لو علم الأستاذ سليم ذلك، سيشعر بأن العيب فيه وأنه معلم فاشل، لم يُوصِّل لهم المعلومة جيدًا فذهبوا لغيره، سيُشَل لو علم، فقرر الكتمان.

ومع تغير منهج الرياضيات لدفعتهم إذ زاد ثلثًا، قرر الأستاذ حساني إقامة السهرات حتى الصباح ليستطيع إنهاء ذلك المقرر خاصة بعد ثورة طلابه بالدرس على اقتراب الامتحانات ولم ينهوا الديناميكا بعد، وقد ذهبوا لشاليهه بالجزيرة المُطل على النيل، ووعدهم أن كل شيء سينتهي قبل الامتحانات وألا يقلقوا، وهكذا أخذ أدهم يذهب وخالد ونور للسهرات، ويتذكرون خميسًا الذي فارقهم مكلومين لذكراه، وفي ذات ليلة لغى الأستاذ السهرة، فعاد أدهم منزله، فلم ينم، بل أخذ يحفظ من كتاب النصوص والأدب ما سيُسمِّعه على الأستاذ سليم في الصباح بعد ساعات ثلاث، فأنهى الحفظ وصلى الصبح، وانتقل من منزله لدرس الأستاذ سليم في حصة الصباح التي لم يحضرها إلا لإلغاء الأستاذ حساني السهرة، واتخذ مجلسًا بين الشباب، والفتيات يأخذن عن شماله الدكك المواجهة للأستاذ سليم، وجاء الأستاذ بيده كتاب أصفر فاقع لونه يسر الناظرين، ضخم متين كثيف الورق، وضرب به المنضدة قائلًا بغضب:

- جلبتُ لكم كتاب المراجعة النهائية، ولكنكم لا تستحقونه.

اندهشوا جميعًا، وملأ صمتهم الغرفة، فقطعه الأستاذ قائلًا:

- هناك نفر من الناس أخبرني أن متفوقين من درسي قد اتخذوا سبيلًا لأستاذ آخر.

جاء في بال أدهم أن سر سعيد وسامح قد فُشِيَ، وأكَّد له الأستاذ ظنه حين قال:

- المشكلة أن الطالب ذاك الذي قد ذهب لمعلم آخر يتعالى على أُستاذه!

صلفُ سعيد مؤكد بلا شك، وهنا قال الأستاذ سليم بعد أن استنشق نفسًا عميقًا:

- وأنتم تعلمونهم جيدًا.

وفي لمحة خاطفة نظر لأدهم وسأله:

- أليس كذلك يا أدهم؟

صُعِقَ أدهم عندما وجَّه الأستاذ السؤال إليه، الأستاذ يعلم أنه يعرف بأمر سعيد وسامح، وهو لم يعرف سوى من أسبوع واحد فقط، فقال بتردد:

- إحم، ما لي أنا يا أستاذ؟

- أنت تعرف، وتُخبِّئ عني، احلف أنك لا تعرف بأمرهم.

فلزم أدهم الصمت ونظر للأرض مطرقًا، ورفع رأسه بعدها ينظر نحو الأستاذ وفرج فاهه ليتحدث، وسمع شهقة فتاة لمحها بطرف عينه، فتاة ممن أخبره سامح عنهن، فما قال شيئًا، وسكت، والأستاذ ينظر له شزرًا، وقال:

- حسنًا، فلننس هذا الأمر الآن، ولنباشر حصَّتنا.

وانتظر أدهم مرور الحصة ذات الدم الثقيل، وما صدّق أن أنهاها، فخرج من بيت الأستاذ يتنفس الصُعداء، ورجع بيته فورًا لينام من سهرته التي طالت.

* * * *

البنات لا يسكُتن، في خلال ساعات انتشر الخبر وسط الطلاب جميعهم، وفي المساء ذهب سعيد بعد أن اُفتضح أمره للأستاذ سليم وبصوت يكركب قال: (لا يُشرِّفني أنك أستاذي ولا أستفيد منك بشيء). كاد الدمع ينزل من عيني الأستاذ ولكنه حبسه قدرما يستطيع. أعطاه أوراقًا نقدية، وقال:

- مصروفات الدرس لأنني سأذهب.

بعين حزينة أخذ الأستاذ الأموال قائلًا:

- والله يا بني لولا حُرمة تقطيع الفلوس لكنت قطَّعتُها..

تفحَّص الأستاذ النقود برهة ثم قال:

- تبدو كثيرة!

فقال سعيد:

- أجل، مصاريفي أنا وسامح.

- سامح! أسامح معك؟

- أجل.

ورحل من أمامه نحو الباب، وأعطى الأستاذ النقود لأحد الطلاب قائلًا له:

- ضعها بصندوق المسجد..

وهكذا مضى سعيد في طريقه مع أستاذه الجديد أما سامح فقد هجر دروسه كلها بعد أن اكتفى من العلم وزاد على حاله أن نصَّب نفسه معلِّمًا في بيته يشرح لزملائه الضُعفاء في الدراسة...

* * * *

على النقيض من أدهم وأصحابه، كانت هناك فتاة حق مجتهدة، جد مثابرة، فعلًا نشيطة، تجهد نفسها بالتفوق مع الأستاذ سليم، حتى أصبحت تلميذته المفضلة في طلاب جيلها أجمع، وتطور تفضيله لها أن أصبح يعطيها جوائز كلما حصلت على علامة كاملة في أي امتحان يضعه، وكانت صديقتها تحقد عليها حقدًا، وتسأل نفسها:

- لمَ يُعني بتلك الفتاة لتلك الدرجة، وقد يكون هناك من هي أفضل منها؟

وفي ذات يوم قد جلب فيه كتاب المراجعة النهائية، وذهبت الفتاة المجتهدة أمام مجموعة الطلاب والطالبات، وطلبت من الأستاذ شراء كتاب، فاستعظم طلبها، وأهداها الكتاب هدية أمام الجميع، ورحلت الفتاة من أمامه، ولكن صديقتها لم تستطع كبح غيظها، وقامت متجهة نحو الأستاذ، وقالت له بالفم المليء:

- من تُوقِّرها وتُعظِّم فيها وتحبُّها تذهب لمعلم آخر غيرك؛ لأنك لم تُغنِها..

* * * *

لم يُحب صبيح عبدالخالق دراسته للأحياء والجيولوجيا كما يحب الفيزياء والكيمياء، وذلك لأنه ذات يوم كما يذكر قال له والده:

- ليتني أراك طبيبًا!

وها هو قد نزل لرغبة والده، فالتحق بركب شعبة العلوم الحيوية والجيولوجية بالثانوية، يدهس بمطرقة على حبه للرياضيات والميكانيكا كدهسه رأس بصلة على منضدة، أخذ يبذل ما بوسعه شهورًا في الثانوية، وجاء يوم أن سمع بمصاب أخيه الأكبر بينما يذاكر بغرفته، لقد وقع حادث لأخيه سميح على الطريق العمومي؛ انقلبت به السيارة إثر ارتطامها بأخرى، ونُقِل للمشفى ليمكث بها وقتًا عصيبًا، وهنا انقطع صبيح عن دروسه للاعتناء ببنت أخيه، والاعتناء بعمل والده الذي طعن في السن ولم يعد قادرًا على الذهاب للمتجر يديره، حيث يشتري منه التجار بالجملة ما يريدون لدكاكينهم، أصبح حينها رب أسرة صغير ولم يكمل الثامنة عشرة، وإذا به يجد الامتحانات قد حلَّت، فما كان منه سوى أن ذهب إليها مغلوبًا على أمره، فمر بامتحانات اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، ووجد أنه لن يستطيع أن يؤدي الامتحانات الباقية، وأنه لن يحقق لوالده ما أراده، فمكث في بيته، لم يذهب للبقية، واتصل بأدهم يقول له:

- أدهم. قررت أن أُعيد عام الثانوية مرَّة أخرى.

* * * *

المسيو عزيز له نظرة ثاقبة في الطالب أمامه، أحب أدهم لمثابرته واجتهاده، وكذلك أحب صفية غانم، عندما دلفت درسه للفرنسية أول مرة شعر بنار الاجتهاد تتقد بداخلها، حرارة لم يجدها في زينب الأولى على المدرسة دائمًا، أو زهراء الذكية الناصحة، أرسلها للأستاذ سليم لتتلمذ على يديه في اللغة العربية، وطلب منه أن يعتني بها ويتمهل عليها

قليلًا، وراقب الأستاذ سليم حالتها التعليمية، فوجدها فاترة طوال العامين المنصرمين قبل عام الثانوية، واتصل به المسيو عزيز يومًا يسأله عن حالها، فقال له الأستاذ سليم بيأس:

- صفية ممن يردن زوجًا وبيتًا لا من ذوات التعليم.

فقال له المسيو عزيز بثقة:

- تريَّث وستدهشك.. أنا أثق بها..

صفية مغمورة وسط صاحباتها النجيبات، لم يعرفها أدهم سوى من أستاذه المسيو عزيز، لا يستطيع تكوين شيء عن ملامحها أبدًا، وعندما كان يذهب لمجموعة المتفوقين لم يجدها، الأستاذ سليم لم يثق بقدرتها أبدًا، وهي تعلم عنه ذلك الشعور، وقالت لنفسها: (سيكون غدًا أفضل، ولنا في النهايات عبر)، تؤمن بأن ركودها من قبل ليس مقياسًا للنجاح أو الفشل، والعبرة بالخواتيم، وليعتبر المبصر..

* * * *

بدأ شهر رمضان الكريم، وهو شهر امتحانات الثانوية العامة، تمتزج فيه طاعة الرب بالاجتهاد في المذاكرة عند هؤلاء الطلاب، وزاد الأستاذ سليم من الحصص قبيل امتحان اللغة العربية، يبدأ العمل بالمراجعة من العاشرة صباحًا حتى قبيل ضرب المدفع، فيفطر ثم يأخذ سيارته ويطير بها نحو القناطر الخيرية ليباشر درسه مع الطلاب هناك، فينتهي منهم عند انتصاف الليل، فيعود للقرية ويتسحر، ويباشر حصة إضافية بعد الفجر يستقبل بها مع الطلاب نسيم الصباح. وبكر جمال قد مكث ببيته مهملًا دروسه، ضاربًا بها عرض الحائط، واعتمد على نفسه في المذاكرة الخاطفة، فأنهى

مذاكرة اللغة العربية كأحسن ما يكون، ونهره أدهم كثيرًا لتركه دروسه الخصوصية وإهماله فضلًا عن والده الذي يتشدد معه، ولكن بكر لم يكن يتحمل حصص الأساتذة كتحمُّله لعب كرة القدم التي يعشقها كعينيه، وكثيرًا ما تلقفه الأستاذ سليم من الملاعب لحضور الدرس، ولكن دون فائدة، وبكر يرى لنفسه مستقبلًا مغايرًا لما يراه الآخرون، فكلما نظر لنفسه في المرآة رأى لاعب كرة قدم في أحد النوادي المصرية، مشهورًا يُعجب به الناس ويشجعونه، ويحرز الهدف تلو الهدف والناس تُصفِّق، ويظهر على التلفاز مع الإعلامية منى الشاذلي كضيف ببرنامجها، يحرز الأموال كإحرازه الأهداف، ويركب سيارته الليموزين ويخرج يده من شباكها يلقي أوراق النقود على الناس في الشارع. هكذا يرى نفسه، وهكذا يريدها أن تكون.

وحانت ليلة امتحان العربية، وأرق أدهم في تلك الليلة، ولم ينم سوى ثلاث ساعات من الفجر، واصطبح بالصلاة، وقراءة يس، وأخذ أقلامه، وركب التوكتوك مع خالد وصبيح، وكانوا أمام المدرسة بالقناطر حيث لم يكن لهم أن يمتحنوا بمدرستهم بقريتهم، وشعروا بالأعصاب المتوترة من الكل قبيل دخول الامتحان، وهناك ممن يقعون من طولهم وهم واقفون، يوقظونهم بضرب خياشيمهم بالعطر أو غيره، والكثير منهم من الفتيات ممن لا تحتمل أعصابهن رهبة الامتحان، ودلفوا لجانهم بعد التفتيش العقيم على باب المدرسة بجهاز كاشف المعادن والتفتيش اليدوي، وكأن الطالب سيدخل بقنبلة يفجر المدرسة بها، والأمنجية مطالبون بحفظ الأمن وعلى المدرسة التي تحمل الخير لمصر، ووُزِّعت أوراق البوكليت على الطلاب، وحل الصمت عليهم لثلاث ساعات متوترة، وفي الامتحان لم يجدوا غير

ما أخبرهم به ودرَّبهم عليه الأستاذ سليم، لا زيادة بل أقل، وبعد الامتحان انكسرت رهبته، وفرح من فرح، وحزن من حزن، وبكى من بكى على حظه، وغشَّ من استطاع للغش سبيلًا، وألقى أدهم الامتحان وراء ظهره وهو راض بما صنع، واطمأن لأصحابه، وبكر فرح بما أنجز بورقة إجابته، ويؤكد لأدهم أنه قد اجتاز الامتحان وبجدارة. ورجع أدهم بيته كل تفكيره في الامتحان التالي للإنجليزية، والبعض ذهب للأستاذ سليم ليجادلوه في نقطة أو نقطتين بالامتحان ظانين أنهم بمراجعتها أن إجابتهم قد تتبدل من الخطأ للصواب. اطمأنت عائشة على أدهم حين دلف المنزل عليها وقد كان والده في عمله محاسبًا بمصنع الجود لم يرجع بعد، وسألته بعد أن تأكدت من سلامته بعد الرعب المنتشر على التلفاز من أولياء أمور أمام المدارس ينتظرون أبناءهم:

- كيف كنت في الامتحان؟

فأردف بهدوء:

- الحمد لله.

ودلف غرفته ينام ليستيقظ على الإفطار ويستعد للمذاكرة بعدها، وعائشة تنظر له بتعجب، فلم تر عليه ما سمعت عنه من توتر لطالب ثانوية عامة قد خرج من امتحانه الأول!

* * * *

وكانت أحب الأوقات لأدهم هي صلاة التراويح بعد العشاء على صوت الشيخ عبد الباسط العذب في قراءة جميلة للقرآن ربيع القلوب، وبعد التراويح يمشي مع الشيخ يُحدِّثه في أمور حياته، فصداقته للشيخ

متينة قوية منذ الصغر، والشيخ يحبه كابنه، يمران في سيرهما بشوارع عدة ينظران أحوال الناس، قد يقابلان عزت وخالد فيصحبانهما معهما، وعند العاشرة والنصف يرجع كل لمنزله يباشر ما انقطع عنه. ومرَّ امتحان الإنجليزية، والفرنسية، وانقطع صبيح عن الامتحانات وأدهم يظنه قد ملَّ من ركوب التوكتوك معه وخالد، ولم يدرِ أنه قد قرر أن يمضي عامًا آخر في الثانوية إلا بعد أن اتصل به صبيح وأخبره بعد أن انتهى شهر رمضان، وجاء الامتحانان العملاقان؛ امتحانا الفيزياء والتاريخ، ولينظر ابن الهيثم والبيروني ورَثتهما كيف يبلون من قبرهما، تمرُّ الساعات الثلاث، ويرى أدهم من لجنته المواجهة لحمام الفتيات المعلمات يحملن فتاة من لجنة التاريخ بجانبه، قد وقعت مِن طولها حين كانت سائرة نحو الحمام، وأخذوا يُشمِّمونها المنديل المعطر، وفاقت سريعًا، ودخلت الحمام لتخرج ما بأمعائها من قيء، ورجعت للجنتها تباشر امتحانها، وبعد الامتحان خرج من لجنته يرقب الأوضاع. زينب على الأرض تبكي وتولول قائلة: (الامتحان فظيع.)، وزهراء شاردة لا تدري ما تقول، وصفية تربت على كتف زينب تهدئها، ونسمة تواسي زهراء إن مرَّت بساعات سوء، وعزت يريد مراجعة نقطة من الامتحان مع أدهم، وأدهم ينصحه بالعدول عن المراجعة حتى لا يتأثر فيما بعد ويفقد ثباته للامتحانات القادمة، وبكر خرج لأدهم مفزوعًا يهمس له:

- لقد حللت بشكل سيء جدًا.. لم أعرف كيف أحل الامتحان، لقد فشلت يا أدهم، وأظنني لن أكمل البقية.

تذكر أدهم مقولة الأستاذ صلاح له:

- الشاطر ليس من يذاكر طول السنة وفي الامتحانات عند أول صدمة يقع ولا يريد أن يُكمل، بل الشاطر من يكون نفسه طويلًا ويكمل حتى آخر رمق.

فقال أدهم لبكر بسرعة:

- إياك والتفكير في عدم خوض بقية الامتحانات كي لا تندم في وقت لن ينفع فيه الندم.

فتوكل بكر على الله، ونفض ما حدث عن مخيلته التي تصنع من الحَبَّة قُبَّة.

* * * *

يشعر أدهم بتعب في جنبيه، ليست الكليتان ما تتعبانه، إنه القولون العصبي، لأول مرة يشعر بهكذا شعور، لم يعد يستطيع السير بسرعة، أصبح وئيد الخطى، أخذ يلعن الثانوية وما تصنعه بطلابها وأهاليهم من حرق للأعصاب وتعب ومرض، ملجأه تلك الأيام عند الأستاذ حساني والأستاذ صلاح، واختتم الأستاذ صلاح حصة الكيمياء الأخيرة ينصحهم قائلًا:

- لا تجعلوا نجاحكم العلمي والمجتمعي هدفكم الأسمى، ولتجعلوا رضا الله نصب أعينكم دومًا، ولتصنعوا لآخرتكم ما ترتضونه لأنفسكم، الله لن يسألك عن كيفية تحضير النشادر، أو عن قانون فراداي..

وودَّعوا الأستاذ. وتبقى يومان على امتحان الكيمياء، وجاءت الإنفلونزا لأدهم تُرقده طريح الفراش، هدت جسده هدًا، عظامه لا

تقوى على الحراك، ينام من اليوم أكثره، وماجت الإنفلونزا واستشرت أكثر، فأصيب بهذيان وبدأ يُخرِّف، فعندما كان نائمًا على السرير يَكسِلُ على القيام ليفتح كتاب الكيمياء رأى أمامه شبحًا يعرفه جيدًا، إنها ماما فتحية، قالت له:

- قُم يا أدهم لديك امتحان..

فيقول لها:

- لا أقدر يا ماما فتحية.. المرض هدَّني..

فقالت له:

- لن يغلبك المرض، الله معك يا بني.

وفي ركن الغرفة التي أغلقها على نفسه رأى خميسًا صديقه الفقيد، فقال له وهو يبكي:

- آه يا خميس أين أنت؟

فقال له خميس:

- روحي لا تزال باقية يا أدهم، أنا معك دائمًا لم أرحل، هيا قُم وانزع عنك المرض.

حاول أدهم القيام من رقوده، فجلس على طرف السرير، وماما فتحية تقول له:

- سيضرب مدفع الإفطار بعد قليل، خذ قرصين من الدواء ليبيد المرض أسرع.

وضرب المدفع، فبلع القرصين معًا مع شربة ماء، وهنا تجلَّت أمامه نسمة، يراها رأي العين كماما فتحية، فناداها لتبتسم له، واقتربت منه، وأمسكت بيده، وأوقفته على قدميه قائلًا:

- لديك مذاكرة يجب أن تنهيها.

وأجلسته هي وماما فتحية على الكرسي، وأمامه الكتاب مفتوحًا، ونسمة تقول له:

- اقرأ ما تيسر لك حتى تنغلق عيناك.

وأخذ يقرأ معادلات الكيمياء أمامه، ونظر حوله مرة أخرى، فلم يجدهم، كان وحده بالغرفة يذاكر. وفي يوم الامتحان، ذهب وهو يتحامل على نفسه، وجاءته الورقة، فلم يستطع أن يرى الأسئلة من فرط المرض، ولكنه وجد يده تكتب، نظر حوله، فوجد خميسًا وماما فتحية ونسمة يبتسمون له ويقولون:

- نحن معك.

وأنهى امتحانه، ورحل لمنزله، ونام كمن لم ينم دهرًا، وإذا به يستيقظ ليجد أن المرض قد خلَّفه وذهب.

* * * *

ودَّعوا امتحانات الثانوية، بعضهم بخواطر مجبورة وآخرون بخواطر مكلومة، وجاء صبح العيد يتنفسون فيه الصُعداء، وصلَّى أدهم في مركز شباب شلقان حيث يفرشه الناس ويجتمعون فيه للصلاة، ويقابل الأحباب بعضهم، والنساء كذلك يحضرن ذلك النادي ويقفون بالخلف، ولكن لا يصلين. تتبرج الواحدة منهن وترتدي الهدمة على

الحبل، وتأتي إما لمقابلة صاحباتها أو لإغراء شاب مسكين، عرائس المولد هربن من الفتارين وجئن للنادي حيث المُصلَّى.

ورجع أدهم من الصلاة ولقاء الأصحاب يسير مع بكر الذي شكا له سوء أحواله، فقد مرَّ بسوء في الامتحانات، وأنه لن يصيب خيرًا يرجوه والده منه، ووالده مغتاظ منه لإهماله ولعبه، ينهره كلما رآه بكلمات تضرب المعنويات في مقتل، وبكر روحه هشَّة، ينغلق على نفسه كلما وجَّه أبوه سهمًا من أقواله نحو قلبه، هدَّأه أدهم، وقال له:

- لا تتعجل المصائب، وتفاءل بالخير تجده.
- أبي لا ينفك يصفعني القول وراء القول.
- أبوك يريدك أن تكون أفضل إنسان في الكون، لذلك ينهرك لأنه لا يحب أن يراك تفشل في شيء.
- أتظن؟
- متيقن.. ما رأيك بكلية الفنون التطبيقية؟
- أرغب بها والله.
- إن شاء الله تلتحق بها.

* * * *

وكانت كلية الفنون التطبيقية قد فتحت اختباراتها للقدرات، وامتحنها بكر وأبلى فيه حسنًا ككل الطلاب من يرتضون بدخولها، أو من يأخذونها كاحتياط إن لم يظفروا بكلية قمة كما يطلقون على الطب والهندسة والصيدلة، وانتظر نتيجة الثانوية ليتقرر مصيره. وذات يوم وجد على الفيسبوك إعلانًا لنادي كرة قدم قد فتح باب استقبال

المواهب، فتقدم له، وذهب للاختبار الأوَّلي، فظفر به، وكذلك نجح في اختباره الثاني، وجاء الاختبار الأخير الثالث، فضيعه لأنه لم يستيقظ مبكرًا ليذهب إليه، وضاعت عليه فرصة الالتحاق بركب لاعبي كرة القدم، وسخر منه أبوه جمال، وقال له:

- لا أنت نافع في تعليم ولا لعب حتى!

فما فعل سوى أن أغلق باب غرفته على نفسه يبكي وحيدًا.

* * * *

أعلن وزير التعليم أن نتيجة الثانوية غدًا، وهنا بدأ الرعب الحقيقي، فالكل خائف حتى اللحظة من النتيجة وبواعثها، تتقلص الأمعاء وتتوتر، وتنبعث روائح الخوف، رجع عزت منزله ليجد أبوه يقول له:

- جلب صديقي النتيجة لك من الكنترول.. لقد حصلت على خمس وتسعين بالمائة..

ضرب الحزن عزت، فقد كان يأمل بأكثر من ذلك، وفي نفس اللحظة جلب خالد نتيجته أيضًا، وحصل على ثمان وتسعين بالمائة، وفرح أدهم بذلك حين أخبره صباح اليوم التالي. وفي الظهيرة، ظهرت النتيجة لكل الطلاب على موقع اليوم السابع حصريًا، وكتب أدهم رقم جلوسه، ورأى مجموعه، ثمان وتسعون بالمائة، بكت عائشة حين سمعت بالمجموع، وزغردت بصوت يرجُّ الشارع، وهرعت نحوها الجارات يهنِّئنها وأدهم، وأبوه محمود في فرحة عارمة وقد بيَّض ابنه وجهه، ومنذ اليوم أخذوا يلقبونه بـ (أبو المهندس)، وجلس أدهم بعد الفرحة وحيدًا بغرفته، ليجد الأستاذ سليم يبارك له في رسالة نصية، وطلب منه أن

يخبره بما حاز البقية من دفعته، فجلب له النتائج التي طلبها، وجد زينب قد حصلت على ستة وتسعين، وزهراء أربعة وتسعين، فلم يصدق هو والأستاذ ما رأياه، المتوقع للفتاتين الطب، ولكن الطب لن يتزلزل عن السبعة وتسعين، وإذا بالأستاذ يسأله عن نتيجة صفية غانم، فبحث له عنها، وجد مجموعها نفس مجموعه تمامًا، ففرح الأستاذ غير مصدِّق، هي الأولى بلا منازع عليهن جميعًا، والأستاذ سليم لم يصدق أنها قد حازت على المركز الأول، وبعدها في المركز مباشرة وجد سعيد الطيب، قد حاز على سبعة وتسعين هو الآخر، سيصبح طبيبًا من الغد، وهو فرح إذ انقلب الترتيب وأصبح له مركزًا فيه، وسامح لم يُحصِّل سوى خمسة وتسعين، لقد فشل في حوز ما أراد وهو الذي نصَّب نفسه أستاذًا لضرائبه من زملائه وفرح أدهم أشد الفرح لنسمة حين وجدها قد حازت على أربعة وتسعين، مجموع يكفيها لدخول الهندسة أو ما تريد غيرها، وجلال عمار قد حصل على الثمانين بالمائة وسيحصل على كلية التجارة التي رغب فيها دون مُبرر وبكر أيضًا لم يحز إلا ثمانين بالمائة، بلا شك سيواجه يومًا عصيبًا مع أبيه.

وجاء الأقارب الذين يعرفهم أدهم والذين يجهلهم من مناطق عدة، يهنئونه ويباركون له النجاح. أحس حينها بخطره لنجاحه، وقدمت لهم عائشة الجاتوه وعلب البيبسي، وجاءته عمته نجوى التي يحبها أكثر من عمّيه ومعها ابنتها هدى التي هنَّأته بحرارة حيث يعتبرها كأخت له، وجلست تُحدِّثه كثيرًا عما مر به فهي لم تره منذ مدة.

وبعد أيام حاز أدهم على كليته، وجد رسالة مكتب التنسيق مكتوب فيها: (تم ترشيحكم لكلية هندسة شبرا بنها)، والتحق بها هو وخالد ونور، وعزت التحق بالصيدلة بجامعة خاصة كما التحق سامح بكلية الزراعة بعدما لم يفده مجموعه بغير ذلك، وذهب سعيد للطب وكذلك صفية، وزهراء رضيت بالتربية لتصبح مُعلِّمة الأجيال القادمة وزينب بكلية العلاج الطبيعي التي ارتضتها لنفسها، وبكر بالتجارة بعد أن لاقى من والده الكثير من التعسُّف والضيق، وصبيح قد عاد مرة أخرى للثانوية يُعيدها، وانفتحت صفحة جديدة في حياتهم يستقبلونها بوجوه مختلفة حسب اختلاف النفوس...

* * * *

يحاول بكر أن يجد لحياته معنى الآن، ماذا يفعل إن لم يكن له مستقبل حسن على قول والده؟ يقول له:

- لقد فشلت يا بكر، صرفت عليك دم قلبي وفشلت، ضيَّعتَ مستقبلك، ولا يهمك تعبي، ولا ترى لنفسك سوى لعب كرة القدم التي لا تغني ولا تفيد، بئس الابن أنت!

يسمع تقريعه ويكلم قلبه، ويبحث عن ناد يرتضيه كلاعب قارب أن يتعدى سنه السماح بالقبول، طلب من والده المال للتقديم في اختبار للنادي، فقال له والده بعد أن أعطاه النقود:

- سترجع لي خائبًا، أنا أعلمك جيدًا، لم ولن تفلح بشيء أبدًا.

وفي الاختبار أظهر بكر براعة منقطعة النظير شهدها أدهم بنفسه، وأثنى عليه المدرب بالخارج، ولكنه لم يختره، واختار غيره من جاءت أمه معه

تتودد للمدرب الذي سال لعابه أمام نهديها، وخسر بكر يومه، ولكن أدهم قال له:

- ربما لك نصيب مع ناد آخر، فلا تأفل.
- لم يعد هناك وقت يا أدهم لن يختاروني بعد الآن لقد تخطيت العشرين.
- الجأ لله يُعِنك.. ما لجأت له ورجعت خاسرًا.

ورجع بيته، وسمع من والده تقريعًا آخر:

- يا ولدي كفاك عبثًا بحياتك، لن تصبح لاعبًا كما لم تستطع أن تصبح طبيبًا وفشلت.. ستعيش كأي مواطن عادي يعمل ويكد ليكسب قوت يومه، لا لاعبًا يجري تسعين دقيقة ويعبُّ الألوف.

أغلق على نفسه الغرفة، ووقف أمام المرآة ينظر لنفسه، أبوه محق، لا فائدة مما يحاول فعله، عبث لا غناء فيه، اقتطع ورقة من كشكول، وخط عليها كلامًا، وألقاها على سريره، وخرج من غرفته عند انتصاف الليل والكل نيام، وترك منزله، واتجه مشيًا نحو القناطر الخيرية، ووصل حتى الكوبري الواصل بين القرية والمدينة، ومن جانبه انحدار للنهر، فنزل الانحدار، ووقف أمام المياه الجارية ينظر لصفحتها، فوجد مسحورة تمد يدها إليه وتفتح ذراعيها له من الناحية الأخرى للصفحة، فإذا به يغمض عينيه، ويلقي بنفسه في أحضانها...

* * * *

هاتف أدهم يصرخ، استيقظ من سباته، ونظر للساعة، فوجدها الثالثة فجرًا، وجد جمال والد بكر يتصل به، وقال له مفزوعًا:

- أدهم، بكر قد غادر وقد ترك لنا ورقة قد كتب فيها: (ألقاكم يوم القيامة)، نبحث عنه ولا نجد له أثرًا، ألا تعرف أين قد يكون؟

فزع أدهم لما سمع، وانتفض من سريره فجأة، وقال:

- لا والله، سأخرج لأبحث عنه سريعًا.

وترك هاتفه، وجرى يرتدي أسماله، وخرج للشوارع يجري في كل مكان لا يقابله سوى كلاب السكك النائمة فجرًا، والتواشيح بصوت النقشبندي تقلقل من حوله من المساجد، وعلى الطريق العمومي باغته ضوء من بعيد؛ إنه ضوء سيارة، وقفت أمامه، ونظر لقائدها، فوجدها الأستاذ سليم، قال له الأستاذ:

- اركب يا أدهم.

فركب معه أدهم، وسأله الأستاذ:

- لِمَ أنت بالشارع؟

- أبحث عن بكر، غائب عن منزله.

- بكر لا يهدأ أبدًا، لطالما جرجرته من الملاعب كي يحضر الدرس! سأبحث عنه معك..

وقاد السيارة وأذان الفجر من المساجد يهل لمسمعيهما فيُخشِع قلبيهما، وقال لأدهم:

- دُفعتُك يا أدهم حقًا أجهدتني وأتعبتني.

- أكيد يا سيدي، لم تَذُقْ من أحد ما ذُقتَه منا.

- ماذا ترى فيما أقوم به يا أدهم؟

- والله يا أستاذ سليم أرى أن تهب علمك للطلاب لوجه الله -تعالى- دون النظر إذا ما كان الطالب يهتم لمجهودك أم لا.
- أنت على حق يا أدهم، لقد سئمت مما أفعل، فليفعل كل ما يريده، ولله أُعلِّمُكم.

اقتربت السيارة من الكوبري، ووجدوا جمعًا من الناس عند الانحدار، فتوقف الأستاذ بالسيارة على جنب، ونزل أدهم يستخبر ما يجمع الناس، فاقترب من المنحدر حيث مياه النيل جارية، والناس في القاع يُخرجون جسدًا غريقًا، ونظر أدهم يتفرَّس في هوية الغريق، فوجده بكرًا. ضربته الصاعقة فخر مهدودًا على الأرض...

* * * *

بكوا أيامًا على بكر بعد دفنه، أُمُّه تُحمِّل أباه سبب انتحاره والأب يبكي لما صنع بفلذة كبده وود لو يدفن نفسه معه وانفصلت الأم عن الأب بعد أيام وتفككت الأسرة للأبد. وأدهم أعصابه هربت منه، لقد رأى جثته تخرج من النهر، وأُمُّه عائشة بجانبه تُهدِّئُ من روعه، لا يصدق أن صديقه قد انتحر، لمَ يا بكر؟ لمَ ضَعفت؟ لم تكن تلك نهاية العالم.. ووجد أدهم ضالته لنسيان ما جرى في الذهاب للكلية، ودلف من بابها يستعد لعام جامعي يكتشف من خلاله حياة جديدة..

* * * *

يرتجف قلبه ارتجافًا كلما رآها في الكلية. أخذ يتابعها بعينيه في كل مكان كرادار. نسمة واقفة، نسمة جالسة، نسمة تأكل، نسمة تشرب، نسمة تتحدث، نسمة تضحك، نسمة تشعر بالسأم.. هكذا كان يهيم بها حبًا،

ولم يعلم أنها تبادله نفس الحب الخفي، ولاحظ خالد عليه سرحانه وعدم اهتمامه بمحاضرات الكلية، ونصحه أن ينتبه لنفسه حتى لا يرسب. وذات يوم وجدها جالسة وحدها على سلم الكلية، فذهب وجلس بالقرب منها، وقال لها:

- كيف حالك يا نسمة؟

بخجل ردت:

- كيف حالك يا أدهم؟
- أراكِ تجلسين وحدك..
- صديقتي لم تأتِ اليوم.
- كيف أنتِ؟
- بخير، وأنت؟
- بخير ما دمتِ بخير.

ابتسمت واحمرت وجنتاها، وأطرقت النظر أرضًا، وحانت لحظة مغادرتها للمحاضرة، فتركته مستأذنة وانصرفت، وتعددت جلساتها يومًا بعد يوم، ووجدها يومًا قد جلبت ألبوم صور عائلتها تُريه إياه، وتحكي له عن أفراد عائلتها. لقد بان ما خفي من الود. عاد ذلك اليوم لوالده بالمنزل يقول له في جلسته بالشرفة حيث كان يجرع قدح القهوة نحو المَغربية:

- أبي، أود أن أخطب فتاة..

انفرجت أسارير محمود والده، وقال له:

- كبرت يا أدهم وتريد الزواج.. من هي صاحبة النصيب التي ستأخذ منا أعزَّ ما نملك؟

- نسمة عاطف الحكيم.

تجهَّم وجه محمود، وسأله:

- قلت من؟

تعجَّب أدهم، وأعاد عليه:

- نسمة عاطف الحكيم.

نظر له محمود مليًا لثوان ثم قال:

- للأسف يا أدهم، لا يمكنك أن تتزوجها..

* * * *

انتهى أدهم من التقليب في ذكرياته عن تلك الصورة له مع أصحابه، والأستاذ سليم في درسه وهم في الثانوية العامة، وتذكَّر آخر ما يذكره عن صبيح وسعيد، مرَّ صبيح بعام آخر وهو في الثانوية، اجتهد بشدة، وامتحن بثقة، وأحرز بعد شهور عشر على مجموع كلية الطب، وسعد والده سعادة غامرة، وذبح لنجاحه عجلًا فرَّقه على الناس، وها هو صبيح يستقبل حياته الجديدة هو الآخر في كلية الطب، ومرَّت عليه الأيام وهو يشعر بالانزعاج والفتور، لا المكان مكانه ولا مزاجه يروق لوجوده فيه، لا يُحبُّ أن يرى تشريح الإنسان ولا أعضائه الخفية عن عينيه، لقد أخطأ حين طاوع رغبة والده، ميوله لا تُلبَّى هنا، ومرَّ عامه الأول، ورسب فيه، ولم يكن على استعداد ليعيده ويُضيِّع العمر ها هنا، قرر قرارًا لا رجوع فيه، حوَّل لكلية التجارة رغمًا عن أبيه.

وانتهي المطاف بسعيد في عيادته بعد أن تعدت سِنّه الثلاثين دون وجود مؤثر في حياته، أراد أن يصبح ناجحًا، وها هو قد حصل على أعتى

الشهادات، هو طبيب الأطباء في القرية الآن، والناس يتهافتون عليه بشدة، ومرَّ يوم وراء اليوم وسعر كشفه يزداد ويزداد، وينكشف من كشفه ما كان مختبئًا عن العين، والعيادة تقل نفرا وراء نفر، وانتهى إلى عيادة خاوية على عروشها، حتى الهواء لا يحب دخولها، فأصبحت حارَّة على سعيد تُطبِق على نَفَسِه، وتمرُّ عليه الأيام بلا مريض يُطَبِبه، فأغلقها بعد أن سئم من الناس ومن الدنيا. سافر إلى بلدة أخرى، ولم يسمع عنه أدهم من حينها. على النقيض صفية محبوبة من أهل البلدة وعيادتها ذاخرة بالخير للمرضى.

خالد ونور مهندسا الكهرباء والإنشاءات المعمارية لا يفترقان في الأعمال أبدًا ويحبهما أهل القرية لطيب خلقهما وشيمهما الكريمة. وعزت صاحب الصيدلية التي تُراعي ظروف الفقراء وتعطيهم أدويتهم بالمجان. وسامح عمل بمصنع الإنتاج الزراعي مُهندسًا. وصبيح الذي افتتح محلًا للبقالة كبير يبتاع منه الباعة الصغار وفتح الله عليه كذلك بملعب لكرة القدم الخماسية يُدِرُّ عليه الخير. لا يزال يقابلهم أدهم مرات متفرقة مرة كل شهر تقريبًا غالبًا في المقهى والبقية غاصت بهم الحياة في دَوَّامتها فلم يرهم أدهم منذ مدة طويلة. دعى لهم بصلاح الحال، وقلَّب الصورة ليرى صورة أخرى؛ تلك الصورة التي يظهر بها مع والديه وهو في العشرين، ودمعت عيناه حين تذكَّرهما، كم كانت أمه وديعة طيبة كنسمة حبيبته! وكم كان والده سمحًا يحبه لخلقه الذي ما فارقه حتى مات بعد مولد يحيى ببضع أعوام حيث لم يحتمل فقد عائشة، ففرفر وراءها! وتذكر ما حكى له والده حين أخبره بحبه لنسمة، فسرح في حديثه لبعض الوقت ولم يشعر أن الفجر يقترب والحلبة في الكوب باردة...

الصورة الثالثة

عاد ذلك اليوم لوالده بالمنزل يقول له في الشرفة حيث كان يجرع قدح القهوة نحو المغربية:

- أبي، أود أن أخطب فتاة..

انفرجت أسارير محمود والده، وقال له:

- كبرت يا أدهم وتريد الزواج.. من هي صاحبة النصيب التي ستأخذ منا أعز ما نملك؟

- نسمة عاطف الحكيم.

تجهم وجه محمود، وسأله:

- قلت من؟

تعجب أدهم، وأعاد عليه:

- نسمة عاطف الحكيم.

نظر له محمود مليًا لثوان ثم قال:

- للأسف يا أدهم، لا يمكنك أن تتزوجها.

صُعق أدهم وقال:

- لمَ؟! أستطيع تحمل نفقاتها وأعمل في أي عمل حالما أنهي الكلية.

زفر محمود وقال:

- كلا يا ولدي ليس السبب أنك غير جدير بالزواج لا سمح الله، لقد تزوجتُ في مثل سنك تمامًا، ولكن بين عائلتنا وعائلة الحكيم مصانع الحداد.. خاصة عاطف الحكيم وزوجته جميلة الحكيم أم نسمة خاصتك.

جلس أدهم أمامه، وسأله بروية:

- ماذا بيننا وبينهم؟

- سأحكي لك يا أدهم، ما دار بيننا وبينهم فهو إرثك ما حييت..

وأرهف أدهم سمعه لوالده يحكي له ما حدث أيام شبابه...

* * * *

أيام التسعينات ما أغربها أيام، لا تدري الناس أفي فقر أم في غنى! الوضع مستور والرزق قليل لشاب كمحمود الجميل اضطرته المعيشة للاعتماد على نفسه بعد موت أبيه صالح طيِّب الذِّكر على الألسنة، ومحمود كالشباب يسأم من المسؤولية، فاضطرت أمه ليلى أن تقوم بتجارتها الخاصة؛ تقوم بتربية البهائم وتسمينها للأضاحي والرعي، زريبتها الأشهر بالقناطر الخيرية، وموسمها عيد الأضحى أجمل أيام الخير والرزق، وها هي قد جاءت قبيل العيد تقبض ثمن بيع العجل للحاج سعيد صاحب محل الأقمشة:

- أخيرًا يا حاج سعيد، سمَّنت لك العجل وأصبح جاهزًا للذبح في العيد إن شاء الله.

فهلل الحاج سعيد:

- الله يبارك لك يا ست ليلى يا أم الأصول، ربنا يبارك في أولادك يا رب.
- الله يخليك..
- وثمن العجل كم يا ست ليلى؟
- عشرة آلاف جنيه يا حاج.
- أليس غال يا ست؟
- والله أبدًا، ليس غالٍ.. انظر العجل بسم الله ما شاء الله كيف حجمه! سيزن معك لحمًا كثيرًا ببركة الله، هذا ليس أي كلام، إنه عمل الست ليلى أكيد سمعت عني.
- صدقًا قولك يا ست ليلى..

وأخرج الحاج سعيد عشرة آلاف جنيه من جيبه في كيس بلاستيكي وقدَّمه للست ليلى قائلًا:

- تفضلي يا ست.. عِدِّيهم لو أردتِ.
- ما دام قُلت عِدِّيهم فهم غير ناقصين، ولا حاجة لأحد ليَعِدَّ خلفك يا حاج سعيد.

سحبت العجل من الزريبة باللجام، وأخذه سعيد يشده من حبله، وحمله على السيارة النصف نقل، وهمَّ أن ينصرف ملقيًا التحية للست ليلى:

- هذا من ذوقك يا ست ليلى، كل عام وأنتِ طيبة، السلام عليكم.
- وأنت طيب يا حاج، عيد سعيد عليك، وعليكم السلام.

أنهت ليلى شغلها بالزريبة، وحان وقت الرحيل، وعندما كانت تغلق الباب جاءها الصوت:

- صباح الخير يا ليلى.

التفتت لمحدثتها، إنها أختها نجاة تصحب ابنتها عائشة معها، ردت تحيتها بحب:

- صباح النور يا نجاة، كيف حالك؟

- الحمد لله يا أختي.

وقالت عائشة سمراء الوجه الجميلة، صغيرة القد، بهيجة الطلعة:

- صباح الخير يا خالتي.

- صباح النور يا حبيبة خالتك.. كيف أنتِ يا عائشة؟

- -الحمد لله يا خالتي بخير.

- تزدادين بهاء كل يوم. إلى أين تذهبان صباحًا هكذا؟

فقالت نجاة:

- اليوم سوق الثلاثاء، قلنا نستيقظ مبكرًا، نروح نتسوق ونتمشى على كوبري القناطر.. ماذا ستفعلين يا أختي؟

- سأُغلق الشونة، وممكن أذهب خلفكما لأشتري سَبَتًا للبيت.

- حسنًا سنسبقكِ نحن.

قبل أن تنصرفا، سألت عائشة ليلى:

- كيف حال محمود يا خالتي؟

ضحكت ليلى وقالت:

- ولمَ تسألين على ابن خالتك ولم تسألي على بقية إخوته يا عائشة؟

لاح الخجل على وجه عائشة، ولم تحسن تفسيرًا وتلعثمت:

- كلا، سؤال عادي، كيف حالهم ونجوى؟

لم تُرد ليلى إحراج أنوثتها وقلبها المرهف، فقالت لها:

- هُم بخير يا حبة عيني، فلتأتِ أنتِ وأمك زورانا نوبة.

فقالت نجاة وهي تهم بالانصراف ساحبة ابنتها:

- إن شاء الله يا أختي.. سلام.
- سلام يا نوجا..

ورحلتا. حدَّثت ليلى نفسها وهي تغلق باب الزريبة:

- البنت ستموت على محمود! لولا تكبير عقله لكنت خطبتها له قبل اليوم ولكنه لا يبغي الاعتدال في شبابه.

ثم تنهدت وقالت:

- كلٌ سينال نصيبه..

مشت على قدميها نشيطة رغم كبر السن، تقترب من الخمسين، والمرض ساكن بها، ولكنها تحتمله وتقاومه، بالست ليلى نشاط قد لا نشعر به في فتاة شابة ناهدة. تمر على النساء من يجلسن يَبِعن في سوق الثلاثاء تحييهن:

- العوافُ!
- أهلًا وسهلًا يا ست ليلى، تفضلي..
- شكرًا يا عينيا، كل سنة وأنتِ طيبة.. (ولأخرى) صباح الخير يا سُكر.
- صباح النور يا ست ليلى يا عسل، تفضلي الشاي.
- تتهني دائمًا يا حبيبتي عيد سعيد.

وصلت لما تنشده. الصائغ سعد الذي يقف في محله، وينظر لها من نافذة:

- صباح الخير يا عم سعد.
- صباح الهناء يا ست الكل.. تفضلي.

أخرجت من سيالة جلبابها كيس النقود التي قبضتها من سعيد، وأعطته لسعد قائلة:

- أريد تبديله.

- أمم.. كالمرَّة الفائتة؟

- أجل بالضبط.

وسألها باستغراب:

- أين يذهب كل هذا الذهب؟

ردت عليه ببرود:

- ليس شغلك يا عم سعد.. الأموال تكافئ جنيهين، هاتهما.

بجفاء قال:

- كما تريدين..

أخذ يتفقد النقود لثوان، ثم قال بعد أن انتهى:

- تمام يا ست ليلى عشرة آلاف يكافئون جنيهين ذهبيين، وبعض الفكة.

- جميل، هاتهم يا عم سعد الله يبارك لك.

- ثواني.

دخل إلى داخل المحل وغاب ثوان ثم رجع معه جنيهين من الذهب وبضع نقود في الكيس، وأعطاهم لليلى:

- تفضلي يا ست.

تفقدتهم قائلة:

- أشكرك يا عم سعد.. كل سنة وأنت طيب يا راجل يا طيب.

- وأنتِ طيبة.

أخرجت النقود من الكيس وقبلتها، ثم وضعتها على جبينها شاكرة:

- الحمد لله.. أشكرك يا رب. نروح السوق ثم نرجع البيت للعيال.

* * * *

على الكنبة بصالة البيت جلست ليلى تطبّق الهدوم من سبت الغسيل لتكوِّمهم جنبها وتساعدها نجوى ابنتها في الطوي. تعتز ليلى بابنتها نجوى، جميلة القدِّ البيضاء التي بلغت الخامسة عشرة، من تشربت وجنتاها بحمرة ونضارة الشباب وتحب كدَّها في مساعدتها في شغل البيت ومعاونة إخوتها الرجال كأنها مسؤولة عن راحتهم بنفس راضية، فأخذت تدعو لها:

- يا رب أراكِ في بيت عدلكِ قريبًا يا نجوى وأفرح بكِ..

وجاء ابنها الأوسط محجوب من عمله محييًا:

- السلام عليكم يا أهل البيت..

قالت ليلى:

- وعليكم السلام يا محجوب، رجعت من الشغل باكرًا!

- أنهينا شغلنا مبكرًا اليوم.

- جيد، لقد ذهبت للسوق وجلبت سبتًا، وأكلًا وجئت..

تضحك نجوى وتقول لمحجوب:

- تصور أمي ماذا جلبت من أكل!

بادرت ليلى بالإفصاح:

- جلبت لكم فسيخًا.

كاد محجوب ينهار، فهو لا يطيق رائحة الفسيخ رغم أنه يأكله مضطرًا، وقال:

- يا إلهي! فسيخ كيف؟ هذا ليس شمَّ النسيم..

- والله أحببت أكله اليوم، فجلبته. إذا كنت لا تريد أن تأكله فقد جلبت معه سمك الرنجة كُلْ منه.

متأففًا قال:

- كلا لا أريد، الظاهر أنك ستقلبين رائحة البيت اليوم..

ودخل فرحان عليهم حاملًا حقيبته المدرسية، ويرتدي قميصًا أبيض اللون وبنطالًا جينز، حياهم بلهجة من يود إبراز صياعته:

- السلام عليكم يا بني آدمين.

ردت ليلى:

- وعليكم السلام يا ضنايا.

سأله محجوب متعجبًا لهجته:

- لمَ يا غلام تقول: (يا بني آدمين) هكذا؟!

رد بنفس اللهجة:

- إنها صياعة وفرتكة يا أخويا.

- صياعة يا أخويا! انظري ابنك يا أماه! إنه يبغي الصعلكة!

فقالت ليلى:

- دعه يا محجوب يعيش سنَّه، كل الشباب هكذا.

- كما تريدين، المهم أن يكون إنسانًا جيدًا بعد أن يُنهي ثانويته.

فقال فرحان في نغمة سوقية:

- لا تقلق يا أخويا، مصلحة الثانوية ستمر عليَّ في شربة مياه.

ضحكت نجوى وقالت له:

- ادخل يا فرحان غرفتك غيّر ملابسك، واجهز سنأكل.
- حاضر يا نوجا..

ودلف فرحان غرفته التي يتشاركها مع أخويه يبدِّل هدومه، ومحجوب يقول عنه:

- هذا الفتى يمشي مع شباب غريبة!

فقالت له ليلى:

- وحده سيعرف من الجيد ومن السيئ، حينما يتعامل مع الكل سيعرف من يصاحب ومن لا يصاحب.. يجب أن يُجرِّب كل أصناف الناس وطوائفهم، وأنت مثله قد جربتهم، ولكن جيلك غير جيله لا أكثر وأخوكما محمود مثلكما، وأبوكم أيضًا قديمًا كان يمشي مع من يُسبرس ويشرب دخانًا سيئًا، وعرف أنهم لا يستأهلون المصاحبة عندما احتاجهم فلم ينجدوه قديمًا، تخلَّوا عنه ونسوه، وكذلك قابلهم بالمثل..

قالت نجوى:

- يا سلام يا أماه، لا أجمل من أيام زمان رحمك الله يا أبي!

ثم قالت ليلى لمحجوب:

- حسنًا قم غيّر ملابسك، وخذ دُشًّا باردًا في السريع واستعد كي ناكل عندما يرجع أخوك محمود، قد قرُب مجيئه.
- حاضر يا ست الكل.

وذهب محجوب يتبع فرحان في دربه، وقامت نجوى تدخل المطبخ تُحضِّر أطباق الأكل، وبقيت ليلى تُطبِّق الغسيل الناشف، ومن باب البيت دلف محمود يُحيّي أمه:

- نهارك حليب بالقشطة يا أماه!

- أجئت يا محمود!

ساخرًا قال:

- كلا ما زلت في الطريق.

- حسنًا ادخل يا عين أمك كي تأكل.

- أي أكل هذا الذي في سبت الهدوم؟

تشمئز ليلى منه وتقول له:

- عمَّن ورثت الغباء؟

- لا أدري والله أُحسُّ بأنني لست ابنك.

فقالت بجزع:

- وحياة أمك! أكبر أولادي وفرحتي الأولى يبقى أكثر واحد مغلِّبني يا رب!

جلس على الكرسي أمامها وقال مواسيًا في سخرية:

- ربنا يُعوِّضك يا أماه!

سألته:

- ماذا فعلت في الشغل؟

ببرود رد:

- اشتغلت!

- يا ولد لا تتعبني معك..
- لا أدري ماذا تريدين مني أن أقوله!
- ألم يكلمك الرئيس في المصنع على غيابك؟
- أجل كلمني.
- وماذا قال لك؟
- صار يشكي لي من الغياب الكثير، وقال تُرهات مثل (سأفصلك)، كلام ليس له قيمة..

شعرت بالسخط من حديثه وزعقت له:

- يا نهارك أسود! كلام ليس له قيمة! ولد! إياك والتغيب من شغلك مرة أخرى، الوضع لا يسمح لك، فأنت لا ترقد على بَنك.

فقال متأففًا ضجرًا:

- لا يُعجبني العمل بمصنع الجود للشكائر ذاك.

ربتت على كتفه وقالت:

- وهل وجدت أفضل منه فلم تذهب له يا ولد؟

مندهشًا قال:

- ما تكون (يا ولد) تلك يا أماه، ألا تحدثين ابنك الكبير؟

ضحكت ملء شدقيها وقالت له:

- ماذا جرى؟ ولد! أتكبر على أمك أم ماذا؟ مهما كبرت أنت وإخوتك ستظلون في نظري أطفالي الصغار الذين أخاف عليهم.

شعر بالعسل من الكلام فقال:

- أصيلة يا أماه..

- آخر مرة وتتغيب من عملك.
- حاضر يا أماه.
- ادخل بدّل ملابسك كي نأكل.

دلف غرفته يفعل كما أمرته، وتركت هي الملابس، وذهبت غرفتها ذات السريرين، أحدهما لها تنام عليه والآخر لنجوى، أضاءت اللمبة الجاز، ونظرت تحت سريرها حيث صندوق أسود متر في متر، اطمأنت لوجوده ثم جذبت الطبلية من ركن الغرفة ونقلتها للصالة، وخرجت نجوى بطبقي الرنجة والفسيخ من المطبخ ووضعتهما على الطبلية، ودلفت مرة أخرى تُحضر طبق البصل الأخضر والخبز الصابح، وجلست جنب أمها التي تنادي على أولادها:

- يا أولاد، هيا قد حُطَّ الأكل..

خرج الإخوة الثلاثة من غرفتهم، وجلسوا يلتفون حول الطبلية بجانب أمهم وأختهم، وفرحان يرتدي حظاظة وسلسلة حديدية كالصعاليك الذي يتصعلك معهم في المدرسة وخارجها، وتأفف محمود من رائحة الفسيخ:

- يا نهار أسود! أفٍ.. ما هذا يا أماه؟ جلبتي فسيخًا؟
- ما لك يا ولد أأول مرة تراه؟
- لا أشم كل يوم رائحته.

فقال له محجوب:

- ولكنك تأكله!

- المضطر يركب الصعب، لا نستطيع أكل الطبيخ واللحم والأرز يوميًا، وأنا أتعب في أكل الفسيخ، كلما حاولت أخذ لقمة منه لا يطلع لحمه في اللقمة بسهولة.

فقالت ليلى:

- كُلْ يا حبيبي مِنَّك له وأنتم صامتون أفضل، ومن لا يعجبه الفسيخ قُدَّامه الرنجة والبصل وأريحوا لي دماغي من الدوشة..

- حسنًا يا أماه.. ها أنا سآكل.

أخذوا يأكلون الطعام بتغميس الخبز في الرنجة والفسيخ وقضم البصل الأخضر، ولاحظ محمود حظاظة فرحان، فهتف مشيرًا لها بسبابته:

- ولد يا فرحان.. ما هذا الذي ترتديه؟

رد فرحان بنفس لهجته:

- إنها حظاظة يا أخويا.

يقلد محمود صوته ساخرًا:

- يا أخويا! ولماذا ترتدي الحظاظة؟

- عادي لزوم الصياعة.

- صياعة؟

تنهره ليلى:

- يكفي يا ولد أنت وهو، دوشتوني..

يسأل محمود في عجب:

- أأصبحت الصياعة دربًا يسلكه الطلاب في الثانوية؟

ثم ينصح فرحان قائلًا:

- إياك يا فرحان أن تمشي وراء هؤلاء؛ عيال الصابون! العيال الصعاليك!
- لا تُحبِّكها يا أخويا.

هتفت ليلى فيهم:

- واضح أننا لن نأكل اليوم، أحدهم قد حسد الأكل.. (ثم لفرحان)
- اسمع الكلام يا حبيب أمك نحن نعرف مصلحتك أكثر منك.

فقال فرحان بضجر:

- حسنًا.
- هكذا أفضل، لا تخدعنكم المظاهر يا أولاد، الرجل لا يكون بالحظاظة، الرجل بأفعاله وجدعنته وعلمه، وخاصة العلم يا بني، قال الله في كتابه الكريم: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات).

فهتف محمود فاشخًا فاه:

- الله عليكِ يا أصيلة!

وصاحت نجوى:

- اهدأوا الآن، اتركونا نأكل!

مرت دقيقة وهم مشغولون بالأكل، وجاء هاجس لليلى أن تسأل محمودًا:

- ما رأيك في عائشة بنت خالتك نجاة؟

توقف محمود عن الأكل كأن اللقمة وقفت في حلقه:

- مالها يا أماه؟

بضجر قالت ليلى:

- هل سترد عليَّ بسؤال؟ أسألك عن رأيك فيها..

- رأيي كيف، لم أفهمك..
- الله ينهي الغباء! رأيك فيها كبنت..

بلا مبالاة قال:

- مهذبة وخلوقة كأختي نجوى..

تبتسم نجوى على ثنائه، وهي تحب الإطراء من إخوتها، وقالت له:

- تسلم لي يا حبيبي.

وسألته ليلى مباغتة:

- إذن أنت موافق؟
- على ماذا أوافق؟
- يوه، توافق أن تتزوجها..

فقال بتوتر وصدمة:

- زواج! يا نهار أسود! كلا..
- مالك يا ولد تسوِّد النهار؟ ألم تقل أنها خلوقة ومُهذَّبة؟!
- أجل، ولكنني لا أريد زواجها!
- لمَ يا بني؟ إنها منا ومن طينتنا، سيكونَ كُل همها أن تصونك.
- ليس في عقلي الزواج والله يا أماه.
- متى يكون في عقلك إذن؟ أعندما تشيخ؟
- أنا أعيش حاليًا في سعادة عازب، ولا زلت صغيرًا في العشرين، عندما يأذن الله، إن شاء الله أتزوج.
- ربنا يستر طريقك أنت وإخوتك.. فَكِّر في الموضوع لا تعرض عنه.
- حسنًا..

عادوا لطعامهم، ولاحظ محمود سلسلة فرحان المتدلية في الطعام فسأله:

- ما تلك السلسلة يا فرحان؟

فصاحت ليلى:

- يا ويلي، يكفي يا محمود قلت له يخلع من هذه السكة!

بهدوء قال محمود باسمًا:

- حسنًا لا بأس!

أنهت ليلى ومحجوب وفرحان طعامهم، وقالت ليلى:

- الحمد لله! سأذهب للحمام، افرغي يا نجوى من طعامك وأرجعي الأطباق للمطبخ.

- حسنًا يا أماه.

خرجت ليلى وولديها من الباب المؤدي للطرقة المؤدية للحمام كي يغسلوا أيديهم من زفارة الفسيخ والرنجة. وقف محمود ليسمح لنجوى بحمل الأطباق والذهاب للمطبخ، ودخل سريعًا لغرفتها وأمه، وأخرج الصندوق الأسود من أسفل السرير، ففتحه، ونظر للجنيهات الذهبية الكثيرة التي تكنزها أمه بعيدًا عن علمهم من تربية البهائم، وأخذ منه جنيهًا ذهبيًا، وقال ضاحكًا:

- يا ذهبك يا أماه!

وخرج من الغرفة واضعًا الجنيه في جيبه قائلًا:

- الآن جبرنا..

* * * *

الأصوات تتعالى من سماعات المساجد الخارجية فاترة في صباح يوم العيد:

- الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.. الله أكبر الله أكبر، ولله الحمد...

وذهب محمود ومحجوب وفرحان كعادتهم كل عيد بالجلابيب البيضاء والرصاصية لمركز شباب القرية الواسع الفناء، يتَّخذه الناس مصلى ومجتمعًا لهم كل عيد، تجد الرجال في الأمام، والنساء في الخلف يُصلُّون جميعًا في خشوع، وبعد أن تنقضي الصلاة والخطبة التي تكون دائمًا عن قصة سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل -عليهما السلاموالافتداء بالكبش. يتصافح الأقارب والأصحاب، ويقفون خارج النادي يلقون الغير ويتمشون على الطريق العمومي، وربما يدخلون محل عصير القصب يجرعون بعض الكؤوس، فإذا ما انتهوا رجعوا سريعًا لبيتهم حيث أمهم ليلى وأختهم نجوى يُعدّون الشاة للذبح، يمسكونها عدا محمود الذي يذبحها بالسكين لتسيل الدماء وتغرق ملابسه، ويشفّونها ويعلّقونها في الجنش، ثم يفرغون باطنها بما حشا، وينظفونها ويقطعون منها اللحم، وليلى تزن ثلثًا تخرجه للفقراء كما اعتادت كل ذبيحة في البيت؛ فليس هناك أحب لليلى أكثر من دعوة فقير لها ولأبنائها وبنتها.

* * * *

الناس يملأون الجنابن في ذلك اليوم فرحين بالعيد بعد انتهاء الذبح الذي يكون وقته غالبًا في الصباح عند الكل بعد صلاة العيد مباشرة، وقد خرجت جميلة شاكر الحكيم من وراء أبيها وأمها تقابله بحجة رؤية صديقتها في يوم العيد في جنينة عفلة بالقناطر الخيرية، ولقد تعوَّدت

مقابلته في الأيام الخوالي خلسة، وهو يهيم بحبها لجمالها الذي سُمِّيت عليه، خمرية خديها مُشرَّبان بدماء وحيوية الشباب، ترتدي فستانها الأصفر الممزوج ببعض البياض على الجنبين، لتظهر وسط الحشائش في الجنينة أقحوانة يانعة، تُحدِّث نفسها وهي تنتظر مجيئه:

- أُحب يوم العيد أرتدي فيه فستاني الحلو وأجئ إلى الجنينة، أُقابل أصحابي و.. وهو أيضًا يجئ..

وجاء لها من تنتظره بقلب شغوف يقول لها من خلفها:

- كل سنة وأنتِ بخير يا جوجو.

فالتفتت له بفرحة قائلة:

- محمود! كل عام وأنت بخير..

جلسا على المقعد القريب الفارغ وسط هالة الناس الذين يستمتعون برؤية الأطفال تلعب في الأرجاء، قال لها محمود:

- تأخرتُ عليكِ؟

بغضب باد على وجهها قالت:

- أجل، وإن أردت رؤيتي مجددًا لا تكررها.

- ياه يا جوجو.. لا تريدينني أن أراكِ! ألا تدرين أنني أُحبكِ؟

- أدري طبعًا، ولكنني لست أقل من أصحابك مَن تذهب لهم باكرًا وتخرجون وتصرف عليهم.. كيف تصرف عليهم من جيبك هكذا بالمناسبة وماهيتك لا تتيح لك التَفَسُّح معهم كل يوم؟

- يا جميلة، الله رازقني من وسع الحمد لله.. اطلبي ما تتمنين الآن وسأجلبه لعينيكِ، لا تحزني مني حبيبتي!

- أي طلب ستجلبه؟!
- أي والله.

مبتسمة قالت:

- أحتاج نقودًا.
- نقود!
- أجل، نقود.. سأشتري بها بعض حاجياتي مساءً.. ألم تسألني ما أطلب وستنفذه؟ ألا تحبني؟
- أُحبك طبعًا، كم تعوزين؟

قالت متوردة الخدود:

- خمسمائة جنيه.
- أليست الخمسمائة جنيه كثيرة؟

بخبث قالت:

- أرني قيمة حبك لي.

متبرمًا قال:

- حسنًا يا جميلة، ولتكن عديتكِ مني.

أخرج من جيبه النقود، وعدَّ خمسمائة جنيه، وأعطاهم إياها قائلًا يتغزل:

- تفضل عيديتك يا جميل! كل سنة وأنتِ بخير.

بسعادة قالت:

- وأنت بخير يا حبيبي.. قم وأكِّلني مثلجات، ثم نفطر.

ضحك وقال:

- ألم تكتفي؟ حسنًا يا جميلتي.

وقفا ومشيا نحو عربة المثلجات، وسألته في سيرهما:

- ماذا حدث معك في الأيام الفائتة؟

- لا أمرًا خطيرًا، فقط عرضت أمي عليَّ الزواج.

انخضت جميلة، وتوقفت أمامه، وقالت متلعثمة:

- ماذا؟ زواج! كيف؟

- عرضت عليَّ عائشة بنت خالتي نجاة.

ابتعدت عنه قليلًا تسأله سؤالًا تخاف من إجابته إن لم تكن على هواها:

- وبمَ أجبت عرضها؟

- رفضت طبعًا.. لا أُفكر في غيرك يا جوجو.

ابتسمت جميلة، ورفرف قلبها سعادة وطربًا، وتنفست الصعداء كعصفور تحرر من قفصه. ولم يلحظ طائرا الحب المراقبين من بعيد، فرحان وصديقاه الصعلوكان، ينظرون لهما، ويسأل أحدهما فرحانًا:

- أليس الواقف مع الفتاة المليحة أخاك يا فرحان؟

وقال الآخر:

- أجل أخوك محمود ها هو هناك!

شهق فرحان وقال:

- يا نهار أبيض! فلنرحل من هنا أفضل.

ورحلوا من الجنينة، وكان محمود يقول لجميلة حينها:

- متى نتزوج يا جوجو؟

فردت عليه بوجوم:

- عندما تتقدم لي يا بيه، تجئ أبي وتطلب يدي منه، كيف نتزوج دون أن تتقدم لخطبتي؟

بغباء قال:

- آه صحيح تصدقي نسيت هذا الموضوع.. حملكِ معي وامسكي على أبيكِ ألا يثقل عليَّ بالطلبات.

كالدلدول يوافق على شروطها، قالت له:

- كيف إن شاء الله؟ يجب أن تفرش لي الأرض وردًا، وهل ستتزوج أي بنت كبنات القرية الشراشيح؟
- عندك حق والله يا جوجو، أنتِ لستِ كأي فتاة..
- يجب أن تدفع لي المهر الذي سأطلبه، أم تظنني لا أستحق؟
- كيف لا تستحقين؟ تستحقين الأكثر والأفضل من ذاك يا حبيبتي.
- وتجلب لي عفشًا من الغالي، موافق أم لا؟

برطم بصوت خفيض:

- والله أشعر أنني قد تقدمت وجالس مع أبيكِ!
- ماذا تقول؟
- لا شيء يا جوجو والله موافق على كل ما ستطلبيه.
- حسنا، تأتي بسرعة تطلبني من أبي.
- حاضر، أُمهد الموضوع لأمي، لأن عقليتها صعبة قليلًا.

لقَّحت عليه:

- فلنر ابن أمه ما سيفعل..

فقال بحزم بعد أن شعر بضربة في معاقل استقلاله:

- كلا لن أسمح لكِ، ليكن ببالك أنني ليس لي علاقة بأوامر أمي، وما أريده أفعله بمزاجي وقتما يحلو لي.
- لا أشعر بما تقول.

بيأس سألها:

- ما لكِ يا جوجو تَسنِّين عليَّ السكين هكذا؟

قالت بضجر:

- نتقابل كثيرًا وتعدني بالزواج ولا أرى أي تقدم منك لا تريد أن تتلحلح وتخطبني.

زفر وقال:

- حسنًا أعدكِ قريبًا سأتقدم لكِ.
- ها أنا أنتظر، وليكن في بالك هذه آخر فرصة لك يا محمود.

طأطأ رأسه وقال:

- فليكن..

* * * *

أخبر فرحان أمه بما رأى في الجنينة، ووقف بجانب محجوب ليرى ما ستفعله أمه بينما انشغلت نجوى في المطبخ تغسل الصحون، وجلست ليلى على الأريكة بالصالة تنتظر دخول محمود عليها راجعًا من نزهته، ودخل عليهم قائلًا بفرحة:

- السلام عليكم.. كل سنة وأنتم بخير يا عائلتي الجميلة من ليس مثلكم عائلة!

ارتجلت ليلى عن الأريكة، وقالت له بامتعاض:

- وأنت بخير يا من ليس مثلك أحد، تعالَ هنا، اقترب!

ضحك بسذاجة حين شعر بكهرباء في الجو حوله حيث رأى تجهم أمه وأخويه، فأحب تلطيف الجو قليلًا وهو يضحك:

- لَم تعطِني عيديتي يا أماه اليوم، دعكِ من أنني قد كبرت، أنا أريد عيديتي كالأطفال.

نظرت ليلى لمحجوب وفرحان آمرة:

- ولداي، دعاني مع أخيكما..

بامتعاض مشوب بالاستهزاء قال فرحان لمحمود بلهجته الصعلوكية:

- ما أخبار الجَو يا معلم محمود؟

- جَو!

زعقت ليلى في فرحان:

- ولد! ادخل غرفتك.

شد محجوب فرحانًا من يده؛ ليدلفا غرفتهما قائلًا:

- ادخل يا غلام، وكفاك لماضة..

وبقيت ليلى تواجه محمودًا في الصالة وحدهما، ونجوى في المطبخ لا تشعر بشيء، قالت ليلى:

- محمود! أنت تفعل هكذا فعل؟

تعجب وسأل:

- ماذا تقصدين؟

- أخذت جنيهات الذهب من الصندوق عندي؟

توتر وعرق جبينه، ووجهه يحمر رويدًا رويدًا، لقد كَشفته أمه، لم يُحسن ردًا بعد بلع ريقه، فقالت له أمه:

- أنت يا محمود من أخذتهم، ما دمت متوترًا ومتلهوجًا هكذا فأنت اختلستهم.. لماذا يا محمود؟

بلع ريقه، وقال:

- كنت أعوز نقودًا..

أَنَّبته تقريعًا:

- يا بني لن ينفعك ما تفعل، تذهب تصرف على أصحابك! أيجب أن تُظهر نفسك فيِّيسًا؟ عار عليك تختلس النقود من ورائي!

- ولكن كيف علمتِ؟

- لحظت الصندوق يَخسُّ، فطفقت أراجعه بالورقة التي أكتب فيها كل مليم..

فقال بندم ويأس:

- أنا آسف يا أماه.

- إياك يا محمود أن تمد يدك مرة أخرى، لو فعلتها ثانية فانس أنني أمك.

طأطأ رأسه وقال:

- أعدك بألا أفعلها مرة ثانية.

- فلننس موضوع الصندوق الآن ولنأت للأهم، أين كنت يا محمود؟

- كنت مع أصحابي..

بغضب صاحت في وجهه:

- ما زلت تكذب.. أخوك فرحان رآك مع جميلة ابنة عمك شاكر صاحب أبيك رحمه الله.

بغضب صاح:

- فرحان ابن ال...

قاطعته تزعق فيه وجهه:

- ولد، تأدب.. تنصحه منذ يومين وتأتي الآن تخرج مع واحدة من وراء أهلها! لو كان أبوها أو أخ من إخوتها رآكما معا لكانت المصيبة.

شهق وزفر ثم قال:

- حسنًا، يا أماه سأصارحكِ..

- صارحني يا ابن بطني.

- أود زواج جميلة ابنة عمي شاكر الحكيم.

بضيق قالت:

- ولكنني عرضت عليك الزواج قبلًا، وأخبرتني أنك لا تفكر فيه.

- لا أريد زواج عائشة بنت خالتي.

بحزن قالت:

- تترك عائشة المهذبة المتربية التي ستصونك، وتذهب تقترن بمن قَبِلَتْ أن تخرج معك من وراء أهلها؟

بدأ يقرع الطبل تملُّقًا:

- يا أماه لا تظلميها، هي بنت مهذبة جدًا، أي والله، لم تتعاملي معها، أضمن لك حسن خلقها، أرجوكِ وافقي.

جلست على الأريكة تأخذ نفسها ببطء، ونظرت له بعد ثوانٍ قائلة:

- محمود، لقد قررت منذ زمن أن أكون عادلة معكم، سأترك لك حرية الاختيار، ولكن صدقني، ستجئ في يوم وتندم، وقتها لن ينفعك الندم.
- إن شاء الله لن يحدث شيئًا، لا تقلقي.
- يمكنك الانصراف.
- حسنًا يا ست الكل، أرجوك لا تحزني.

قبّل رأسها وقالت له:

- لست حزينة، ولكن إياك وفعل شيء آخر.
- حاضر يا أماه..

ودلف غرفته يستريح بينما حدثت هي نفسها:

- العيال مقرفون مهما كبروا.. كلما يكبرون همهم يزداد!

لم يتوقف عقلها عن التفكير في صندوق الذهب في غرفتها، قامت من جلستها وذهبت تخرج الصندوق من تحت السرير، وفتحته تنظر إلى الذهب متأملة لثوانٍ ثم أغلقته، وفكَّرت:

- هذا الصندوق لا يمكن تركه هنا.. يد واحد مُدَّت، الله أعلم ما قد يفعل الآخرون، والذهب يغري عين الرجال قبل النساء..

أخرجت قفلًا حديديًا من جيبها قد ابتاعته منذ ساعتين، وَصَدَتْ به الصندوق جيدًا، وحملته على ذراعيها، وخرجت به من الغرفة، فالبيت..

* * * *

تألَّق البيت المتهالك أمام عينيها؛ بيت شاكر الحكيم الفقير، البيت كاد أن يتساوى بالأرض منذ مدة، ولكن شاكر قد أسرع يسنده بعمودين

من الخشب كعصبين له، يمنعان تهدُّمه لمدة، لم تجدْ ليلى غيره وجهة تتجه إليها، صديق الأسرة القديم ذو الجلباب الذي لم يُجدده منذ مدة، ضيِّفها في صالة البيت، وشرِّبها شايًا ثقيلًا تُحبه، وقال لها وهو يتأمل الصندوق الأسود تحت قدميها:

- أنرتِ يا ست ليلى، والله زمان! لم أركِ منذ مدة..
- أعذرني يا عم شاكر على الغيبة، كلنا في شغل ووجع رأس، لا أجد وقتًا يتسع بين الزريبة والعيال.
- ربنا يعينك! أنتِ قدر المسؤولية إن شاء الله.
- جئت لك بعد مدة طويلة والله، ولكني مضطرة.
- خيرًا يا ست ليلى؟
- أعرف أنك رجل أصيل، وكنت صاحب زوجي صالح -رحمه الله- ، قليلًا ما افترقتما عن بعضكما.

تعجب وسأل:

- ما لزوم الذكرى؟
- لأنني أثق فيك جدًا جدًا، أريد أن أترك عندك أمانة.
- أمانة؟

أزاحت الصندوق ناحيته، وقالت:

- هذا الصندوق الأسود، أغلقته بقفل جديد، أريدك أمينًا عليه مدة من الزمن ثم ربنا يسهل نُخرجه من ذمتك.. تقدر على الأمانة يا عم شاكر؟

ابتسم وقال:

- اعتبري الصندوق في الحفظ والصون يا ست ليلى، لا تقلقي لن يعلم أحد بوجوده.

قالت بسعادة:

- بارك الله فيك، عندي طلب آخر.
- تفضلي.
- جئتُ أطلبُ يد ابنتك جميلة لابني محمود.

تهلل وجهه، وقال بفرحة:

- يا ألف أهلًا وألف سهلًا، ولكن هل نتفق الآن؟
- سنجلس الجلسة الكبيرة فيما بعد، الآن أعرض عليك المبدأ..
- وهل هناك تفكير؟ نناسب الست ليلى وابنها محمود ابن صاحبي وحبيبي صالح -رحمه الله-!
- ولكن يجب أن تسأل جميلة على رأيها.
- اعتبريها موافقة، وامهليني أسألها كي يقر قلبك.

نادى على جميلة بصوت مبحوح:

- بنت يا جميلة..

جاءت جميلة خجولة تقف بجانب أبيها، وتتأملها ليلى بعينيها لترى قدًّا ممشوق القوام ووجهًا منحوتًا بفن، وجدتها تقول لها بهدوء وخجل:

- كيف حالك يا خالة ليلى؟
- الله يسلمك يا حبيبتي.

وقالت ليلى لشاكر:

- لا تسلها أمامي يا عم شاكر وراعِ خجلها.

- حاضر يا ست، ثواني..

وقف شاكر وجذب ابنته معه ليدخلا للغرفة التي تمكث فيها أمها، ومرت دقيقتان وليلى تقول في بالها:

- ربنا يهدي لك الحال يا محمود.

ورجع لها شاكر مشرق المحيا قائلًا ببسمة فرح:

- البنت موافقة يا ست ليلى.

ابتسمت ليلى وقالت:

- على بركة الله.

وحلت من داخل البيت الزغاريط تهز البيت المتهالك: (لو لو لو لو لو لي!)، فكاد العمودان أن يرقصا عليها..

* * * *

خطب محمود جميلة وأخذ يوضِّب شقته أعلى الشقة التي تسكنها ليلى وإخوته، هذَّبها بيده وبرولّة الدهان لوَّنها وبالكرانيش والنجف زيَّن السقف واشترى عفشًا من دمياط ومطبخًا خشبيًا وحمَّامًا إفرنجيًا غير العين في حمام الشقة السفلى؛ فلن تُحب جميلة الحمام البلدي، وجلب تلفاز توشيبا جديدًا وثلاجة وكانون وغسالة. جلب كل شيء وأمه تساعده بما تقدر بجانب ما يكسبه من شغله، ويتذكر أباه صالحًا زمان حين أعلن الرئيس جمال عبد الناصر قانون الإصلاح الزراعي، وبعث لصالح رسالة يخبره فيها بتسلم خمسة فدادين مقابل دفع خمس جنيهات، ولكن صالح أمام ناظري محمود الصغير فعل ما لا يُستَحَب، ألقى الورقة بالقمامة، فسألته ليلى باستنكار:

- لماذا يا صالح تلقي بالخير في الزبالة؟

رد عليها كغني تتدلى جيوبه بالنقود وهو يسير بين الناس:

- وهل لنا باع في الفلاحة؟

هو يرى أنه من فئة العمال الذين لا اقتران لهم بالفلاحة. ومن حينها يلعن محمود أباه ويقول في نفسه:

- ليتك رضيت بالفلاحة يا أبي! لمَ الصلف؟! ما كنا تكبدنا العناء في الأعمال لا كنتُ عملتُ في الجود ولا عمل محجوب في مصنع الزجاج وما تكبَّد فرحان صعوبات التعليم وما تكبدت عناء زواجي! ويل لك يا أبي وبئس فعلك من رفس النعمة!

وأنهى أخيرًا بعد شهور تسعة لوازم زواجه، وكُتِبَ الكتاب، وزُفَّت العروس في فستانها الأبيض إليه وقد تبرَّجت قدرما تستطيع بالألوان، وهو يرتدي بذلته السوداء التي استعارها من عمه عبد الباقي صديق والده. استلمها من عند بيت أبيها المتهالك، ومشى بها في الشوارع وصولًا لحارته، وفي الحارة عُزِفَت القينات واهتزت الأوتار وطَرَّبَت امرأة غناءً لا ضير منه سوى الفرح والرقص على الهيصة بكلمات مثل: (يا حني، يا شرباتات، يا كحك العيد، يا بسكويت، خليكي شمس جوه بيته، نوريله دايمًا حياته، وراعي ربنا في ولاده، ويبقوا زيكم كده حلوين، يا حني) وعند باب البيت جاءت الفتيات صديقات جميلة يهنِّئنها بالعناق والتقبيل:

- ألف مبارك يا جوجو..

- الله يبارك فيكِ عقبالِك.

وجاء عم عبد الباقي يحييهم:

- ألف مبروك يا ست ليلى وعقبال محجوب وفرحان ونجوى.
- الله يبارك فيك يا رجل يا طيب عقبال أولادك تفرح بهم.
- الله يخليكِ يا ست الكل!

ولاحظ عبد الباقي نجاة فحياها مقتربًا منها:

- كيف حالك يا ست نجاة؟

التفتت له نجاة منتبهة:

- الله يسلمك يا عم عبد الباقي عقبال أولادك.
- عقبال عائشة.. ولكن أين هي؟
- تأخرت قادمة في الطريق.

انتقل بعدها ليحدث محجوبًا وفرحانًا ورأت نجاة عائشة قادمة من بعيد في الحارة فاتجهت نحوها تزجرها:

- لِمَ تأخرتِ يا بنت؟

ردت عائشة بمسحة حزن بادية على وجهها:

- أساسًا لم أنوِ المجيء.
- عيب يا بنت إنه فرح ابن خالتك!
- أوتريدينني أن أرى تلك الفتاة بجانبه وأفرح؟!

ظهر الحزن باديًا على وجه نجاة وقالت لها:

- أعلم يا ابنتي أنكِ تحبيه منذ كنتما صغارًا ولكنه النصيب الزواج قسمة ونصيب.. ادخلي باركي لهما..

ترقرقت دمعة في مقلتي عائشة، فمسحتها لها أمها، واتجهت الفتاة نحو خالتها ليلى، وقالت لها متصنعة وجهًا سعيدًا لشخص مُحطَّم:

- ألف مبارك يا خالتي عقبال محجوب وفرحان..

قابلت ليلى مباركتها بالعناق والقُبل على الخدين قائلة:

- عائشة يا حبيبتي الله يبارك فيكِ، عقبالك يا عسل، يوم زفّتكِ سيأتي وأفرح بكِ أنا وأمك.

وتركت خالتها لتتجه نحو نجوى تبارك لها وتتمنى الله الفرحة قريبًا ثم اتجهت نحو محمود وجميلة وليلى تنظر لها تشفق عليها -وهي اليتيمة- من كل قلبها تعرف أنها تحب محمودًا ابنها ولكن الفتى قلبه ليس معها، تشتمه في عقلها: (ابن الصرمة!). باركت عائشة لمحمود وعانقت وقبَّلت جميلة رغمًا عنها، ورحلت من أمامهما تقف بجانب أمها، وأمها تذكر يوم جاء نبأ خطبة محمود وجميلة حين علمت عائشة بالخبر الصادم، أغلقت على نفسها غرفتها وبكت، وأمها تسمع نحيبها وحاولت تهدئتها ولكن دون فائدة، قلبها مكلوم حزين، ظنَّته من نصيبها وكانت تقول:

- كنت أُشعل له أصابعي العشرة شمعًا، دائمًا أفعل له كل ما يريد عندما أذهب لزيارته بدلًا من أن تخدمه أخته نجوى، في الأخر يذهب لجميلة! يرى أنها هي من ستُريحه الراحة الأبدية وتمنحه الاستقرار!

وأعلنت ليلى أن كفى ذلك الضجيج من حولها صائحة في محمود:

- محمود! اصعد وعروستك لشقتكما.

ودَّعت أم جميلة ابنتها، وأبوها وعدها بالمجيء صباحًا، ودلف محمود بها البيت، ومن خلفه الزغاريد والصخب، وصعد شقته، ودلف غرفة نومه، واستلقت جميلة على السرير تزيل عنها طرحة الفستان وتخلع عنها الفستان ببطء، وهو يخلع بذلته بينما صوت الزغاريد يهدأ شيئًا فشيئًا من الشارع ونظر لجميلة التي تبتسم له قائلًا:

- أخيرًا يا جميلة!

* * * *

تضافرت الأيام ومرَّ العام، واشتد المرض المُهلِك بليلى، قبعت في سريرها لا تستطيع الحراك، ونجوى ومحجوب وفرحان أمامها حزانى لحالها لا يُحسنون صنعًا لمداواتها بعد فشل العقاقير، ينتظرون أخاهم أن ينزل من علٍّ ويسمعون أنينها: "آه!"

فقالت نجوى بجزع:

- ماذا نفعل الآن هل سنترك أمي في وجعها؟! إنها مريضة جدًا.

فقال لها محجوب:

- محمود سيجئ ويتصرف لا أعرف لِمَ ساءت حالتها هكذا! أعانك الله يا أماه!

نادت ليلى بصوت ضعيف:

- يا نجوى.

اقتربت نجوى منها مجيبة:

- أجل يا أماه أسمعكِ.

سعلت من فرط الإعياء وقالت بصعوبة:

- استعجلي محمودًا أخاكِ في المجيء أريده حالًا.
- حاضر يا أماه لا أعرف ما أخَّره!

خرج محجوب من الغرفة يودُّ أن ينادي على أخيه، ففوجئ به في وجهه يدخل الشقة، فقال بأمل:

- ها هو قد جاء أين كنت يا محمود؟

فقال محمود بحزن:

- زوجتي قد جُنَّت فككت منها بصعوبة وتركتها عند أبيها لألحقكم لم أظن أن الزواج مقرف هكذا مُعكِّر للصفو.. المهم ماذا هناك؟

بأسى قال محجوب:

- أمك مُتعبة جدًا يا محمود تسعل بشدة ونَفَسُها يضيق في كل ثانية أكثر وأكثر!
- يا ساتر يا رب!

دلفا الغرفة بهلع، واقترب محمود من أمه المستلقية والمشدود عليها الغطاء، وسألها:

- ما لكِ يا أماه؟

قالت بصوت واهن بعد السعال:

- أنا أموت يا محمود.

اتجه نحو الباب بضيق وهو يقول:

- لا تقولي هكذا قول يا أمي لحظات وسأجلب طبيبًا.

بكل قوتها نادته:

- محمود انتظر..

فتوقف والتفت لها يسمعها:

- لا أريد طبيبًا سينتهي أجلي (تسعل وتوجه الأمر لفرحان) اذهب يا فرحان بسرعة نادِ عمك عبد الباقي.. قل له أن يأتي للضرورة القصوى.. بسرعة يا ابني.

لم يحتمل فرحان فبكى وهو يطيع أمرها:

- حاضر يا أماه.

وخرج يجري مسرعًا ينادي عم عبد الباقي ويصحبه في يده، ومحجوب ترك أخته المذعورة تنزل دموعها واقترب من أمه وقال لها مهدِّئًا روعها:

- لا تقلقي يا أماه.. ستُصبحين بخير لا تقلقي.

وأمه تتشبث بقولها:

- جاءت ساعتي يا محجوب هذه هي النهاية.. أنا أحسُّها..

فقال محمود بحزن:

- اهدئي يا أماه.. كل شيء سيكون بخير.. ستكونين بخير.

وجاء عبد الباقي وسألهم مذعورًا:

- ما لكم يا جماعة ما لها الست ليلى؟

فرد عليه محجوب:

- لا علاج يفيدها يا عم عبد الباقي.. اضمحلَّت حالتها..

نادت ليلى وهي تسعل على عبد الباقي فأجابها بحضوره فقالت له:

- لقد طلبتك كي أُشهِّدكَ على ما سأتلوه وأنا أعرفك أهلًا للأمانة.

- أسمعكِ يا ست ليلى.

قالت ليلى لمحمود:

- يا محمود يا ابني.. أنت ابني الكبير أنت سند لإخوتك من بعدي..

أومأ محمود وأكملت:

- تأخذ بالك من إخوتك جيدًا.. أنت كبيرهم من بعدي..
- حاضر يا أماه.

خاطبَتْهم كلهم:

- اسمعوني كلكم.. ميراثكم أمانة عند عمكم شاكر حماك يا محمود..
- أي إرث؟!
- صندوق أسود مقفول بقفل منذ زمن طويل.. تركته لكم فيه تحويشة العمر.. كل قرش أنا كسبته لأجلكم من تربية البهائم حولت كل النقود لجنيهات ذهب ووضعتها في الصندوق..

هتف محجوب بدهشة:

- صندوق ذهب!

وقالت ليلى لمحمود:

- أنت تعرف الصندوق يا محمود!
- أجل يا أماه أذكره.
- هو مع عمك شاكر.. هذا إرثكم والأهم من هذا كله تذكروا كل كلمة علَّمتها لكم.. إياكم أن تتخاصموا إياكم أن تتشاكلوا. لا أخ يُغير على أخيه احموا بعضكم كونوا سندًا لبعضكم وراعوا أختكم لا تتفرقوا فتفشلوا هذه وصيتي لكم..

فقال محجوب وعبراته تسيل:

- لا تقلقي يا أماه ستُنَفَّذ..

سعلت تلك المرة بشدة ثم قالت:

- عبد الباقي أنا أُشهدك على كل كلمة.. تكون حاضرًا ساعة تقسيم الإرث عليهم بالعدل وشرع الله -سبحانه وتعالى-..

فرد عبد الباقي:

- حاضر يا ست ليلى.

نظرت لسقف الغرفة ثم قالت:

- هكذا أموت وأنا مرتاحة..

ومرت دقيقة من البكاء الصامت، وليلى ساكنة تمامًا، وسكتت عن الهمهمة والسعال وعيناها مفتوحتان، فاقترب فرحان ونجوى منها يناديانها:

- أماه أماه!

اقترب محجوب من ليلى يهزها:

- أماه أماه.. يا ست ليلى يا ست ليلى!

اقترب محمود منهم وهو يهتف:

- أماه استيقظي يا أماه!

لا جواب من ليلى الساكنة في مضجعها، هتف محجوب وهو يبكي:

- إنها لا تتنفس!

وأعلن عبد الباقي بعد أن اقترب من جثمانها وأغلق عينيها بإصبعيه:

- للأسف يا أولاد، البقاء لله!

فصرخت نجوى باكية وإخوتها تكاد قلوبهم تسقط في أقدامهم!

* * * *

أُقيم العزاء أمام البيت، وقف محمود ومحجوب وعبد الباقي يستقبلون المعزيين ويُجلسونهم على الكراسي، ونجوى ونجاة وعائشة وجميلة داخل البيت يستقبلن النساء المُتَّشحات بالسواد على الحصير، لم يبد الحزن بشدة على محمود والتأثر واضح على وجه محجوب، سأله محمود:

- أين فرحان؟
- نائم بعدما هرى نفسه من البكاء.
- هذا الغلام سيظل صغيرًا!
- وماله يا محمود؟! هو صغير فعلًا فقد ماتت أمه!

جاء شاكر يعزي زوج ابنته:

- البقية في حياتكم يا ابني.
- شكر الله سعيك يا عم شاكر تفضل اجلس.

جلس شاكر على الكرسي، وقال محجوب لمحمود:

- ماذا سنفعل في موضوع الصندوق؟
- بعد انتهاء العزاء نذهب لعم شاكر.
- إذن نُحضر فرحان ونجوى وعم عبد الباقي معنا بعد العزاء!
- كلا.

تعجب محجوب:

- كلا! ماذا تقصد؟!

همس له محمود:

- اسمعني جيدًا أنا وأنت فقط سنذهب لشاكر نحن فقط سنأخذ الإرث.. نعطي نجوى منه ونصرف من جيبنا على فرحان..

فقال محجوب متعجبًا:

- ولكن ما تقول ليست وصية أمنا أمنا قالت يُقسَّم بيننا نحن الأربعة بشرع الله!

- يا محجوب فرحان لا يزال صغيرًا لن يحافظ على المال نأخذ نحن المال ونصرف عليه وانتهى.

لا يقبل محجوب الكلام وقال:

- لا أشعر بخير من حديثك.

- إذن تعال معي عند شاكر صامتًا.

مستسلمًا قال محجوب:

- حسنًا.. ربنا يستر.

وقف شاكر منبئًا برحيله ومد يده يصافح الشابين:

- البقاء لله يا رجال.

فرد محمود:

- حياتك الباقية يا عمي.. كنت أحتاجك يا عمي في موضوع.

- خيرًا؟

- أمي رحمها الله كانت تركت عندك صندوق أمانة أليس كذلك؟

- أجل منذ مدة طويلة جدًا.

- إنه ميراثنا من أمنا ونريده هل آتي معك بعد العزاء أنا ومحجوب نأخذه؟

فكر شاكر قليلًا وقال:

- ميراثكم من أمكم! إذن يجب عليكم كلكم الحضور أنت وأخويك وأختك.

ماطل محمود:

- لا يستلزم مجيئنا جميعًا ها أنا ومحجوب سنأتي نأخذه بسرعة ونرجع.
- لا يمكنني يا محمود اعذرني؛ وليس ذلك عدم ثقة بك ولكنها الأمانة أنتم الأربعة تحضرون غدًا عندي أُسلمكم إياه.

ورحل تاركًا إياهما في حيرة من أمرهما وخيبة أمل...

* * * *

في اليوم التالي، مضطرًا اصطحب محمود إخوته جميعًا، وعمه عبد الباقي الشاهد على الوصية معهم أيضا، وذهبوا لبيت شاكر، استقبلهم في صالته، ولم ينتظر محمود كرم الضيافة بل طلب الصندوق أن يأتيه سريعًا يريد عبَّ ما فيه من ذهب، وده لو يأخذه كله، ولكنهم وضعوه أمام الأمر الواقع، فلن يستطيع الجور على نصيب أخيه. قال شاكر:

- ثوانٍ أجلب لكم الصندوق.

ذهب لداخل بيته المسنود من الخارج بعمودين خشب، وجلب الصندوق حاملًا إياه بيديه، وبدا ثقيلًا عليه، وضعه أمامهم قائلًا:

- ها هو الصندوق.

لمس محمود الصندوق يستمد منه الحياة، وقال لشاكر:

- أجل هو الصندوق تسلم يا عم شاكر..

ولاحظ محجوب قفل الصندوق يلمع، فسأل شاكرًا:

- ألم يكن الصندوق عندك لمدة يا عم شاكر؟!
- أجل منذ مدة طويلة جدًا.
- لمَ لَمْ يصدأ القفل إذن؟!

فقال شاكر متصنعًا الغباء:

- لا أدري يا ابني والله، هو هكذا كما أخذته من والدتكم -رحمها الله-.

سألت نجوى:

- أين المفتاح؟

فقال شاكر:

- لا أدري يا ابنتي والله، أمكم لم تعطِني المفتاح.

فقال محمود لفرحان:

- هات يا فرحان طفاشة نطفِّش بها القفل.

فأخرج فرحان طفاشة قد أخذها من صعلوك زميله في المدرسة وفتح محمود بها القفل بروية وحين فُتح لمعت عيناه وقال بفرح:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. ذهبك هلَّ يا أماه..

أزال القفل ورفع غطاء الصندوق وحلَّت ها هنا الصدمة وزالت بسمته وزعق بوجه شاحب:

- ما هذا؟ ما هذا؟!

سأله محجوب الذي لا يرى من الصندوق سوى ظهره:

- ماذا هناك يا محمود؟!

بيده قَلَبَ محمود الصندوق لينتثر ما فيه على الأرض، مكعبات صابون مُغلَّف في ورق! صاح:

- ما هذا العبث؟!

وصاح محجوب بوجه ممتقع:

- يا نهار أسود! أهذا هو الذهب؟!

سقط فرحان على ركبتيه غير مصدق، وخلفه نجوى تنزف دموعًا، وتربت على كتفيه بيديها:

- أين الذهب؟

واتجه محمود نحو شاكر بغضب وسأله:

- أين الذهب يا عم شاكر؟

بهدوء قال شاكر:

- أي ذهب يا ابني؟! أنا لا أدري ما كان في الصندوق!

- كيف؟! ألم تفتحه حينما تركته لك أمي؟

- كلا..

قال عبد الباقي مندهشًا:

- أمكم قالت أن هناك ذهبًا كيف أصبح صابونًا؟!

فقال محجوب لمحمود بغضب:

- كل هذا بسببك.. لولا تفكيرك الشيطاني ما كان ليحدث هذا.

فقال محمود بحزن:

- أستغفر الله العظيم لِمَ يحدث هذا؟

أنّبه محجوب:

- أنت كنت تريد أن تأكل حق أخيك، وها هو الميراث كله قد ذهب، فقط الفقر موجود في الصندوق.

يشعر محمود بالآهة صرخ بقوة:

- غير معقول، غير معقول، كلا.

* * * *

تكحَّلت الدنيا في عيني محمود بعد ضياع إرثه. ما حدث في الأيام التالية يصعب تصديقه، اغتنى عم شاكر فجأة، لم يعد البيت المسنود بعمودين خشبيين بيته، تركه يسقط ويتهدَّم، وانتقل لفيلا كبيرة تناسب مقام مليونير مثله، لا يدري الناس من أين جلب ماله، فجأة تحول من الفقر إلى الغنى في ظرف ساعة؛ فقط حطَّم قفل الصندوق وأخذ ما به وصنع المجد الذي يريده لعائلة الحكيم. وأرسل لابنته جميلة أن حال زوجها لم يعد يناسبها وأن تتركه وتجئ تعيش عنده، فلتخلِّفه وراء ظهرها كالبهيمة، وقالت لمحمود بعد أن حزمت حقيبتها:

- انتهينا يا محمود، لا داعي أن نكمل حياتنا معًا.

كالأبله سألها بزعيق:

- لماذا يا جميلة فيمَ رحيلك؟!

- لم تعد من مستواي وعائلتي يا حبيبي، أنت الآن مُفلس، وأنا لا أريد رجلًا ليس في جيبه قرش!

بصدمة سألها:

- ما هذا الكلام الذي تتفوهين به؟

قالت بتفاخر:

- الآن أبي أصبح صاحب عمارات وأراض، لا يمكن لابنته أن تتمرمط مع واحد مثلك لا يزال يقبض شهرية من مصنع أجوِلَة.

بحزن وإحساس بالصغر هتف:

- حسبي الله ونعم الوكيل! أنتِ يا جميلة تقولين ذلك؟!

- تَحسبَن كما تحب يا حبيبي، إني راحلة..

ورحلت في ستين داهية تجر حقيبتها خلفها، وقال بعد أن رمقها تذهب:

- أنتِ أصلُك زفت! ما المتوقع من بنت شاكر سارق الأمانة؟

جاءه محجوب يسأله:

- ماذا هناك يا محمود؟ صوتك وزوجتك عال واصل خارج البيت..

فقال محمود له بحزن وأسى:

- انتهى يا محجوب، كل شيء تدمَّر!

اقترب منه محجوب وسأله:

- ماذا حدث؟

- جميلة تُعايرني بالفقر!

زفر محجوب وقال:

- طبعًا، أبوها اغتنى فجأة، وهل ما وجده في الصندوق قليل؟! إنه الذهب، وأعطانا في الآخر الصابون.

تحسَّر محمود قائلًا:

- آه الصابون! إلى الآن أنا غير مصدق أنه قد نصب علينا حمايا، صديق العائلة شاكر الكلب!

- هو من سرقنا ابن اللئيمة ولكن عند الله تجتمع الخصوم.

بألم أردف محمود:

- ما يحزنني حقًا أنه كان يسند بيته بعمودين خشبيين كي لا يقع، فجأة أصبح صاحب عمارات، أهذا هو العدل؟!

- لا تنس أن الله عاقبنا أنت كنت تريد أن تُغير على حق أخيك فرحان وأنا طاوعتك.

بحزن وإحساس بالندم قال محمود:

- عندك حق فعلًا.

جاء فرحان من مدرسته حاملًا حقيبته خلف ظهره، ونجوى من خلفه قد جاءت من الخارج بعد أن جلبت الطعام في حقيبة السوق، ونادى محمود فرحانًا:

- تعال يا فرحان..

ذهب فرحان نحوه، فربت محمود على كتفه وقال بألم:

- أنا أخطأت في حقك يا فرحان يا أخي، ظلمتك، أنا آسف، أرجوك سامحني.

ابتسم فرحان له وقال:

- أُسامحك يا محمود، قالت أمي أن نكون دائمًا مع بعض وألا نفترق، لن تُفرِّقنا النقود أبدًا.

بكى محمود وعانق فرحان وهو يقول:

- أمي قالت، أمي قالت أمي قالت كلامًا كثيرًا لم أسمعه وأعِه..

ونجوى تقول له:

- طلِّق جميلة يا محمود، طلِّقها.. جميلة ما كانت تنفعك من الأصل..

ومن باب البيت، دلفت عليهم عائشة، قد جاءت تزورهم بعد فجيعتهم، فلمحت محمودًا يبكي، فرقَّ قلبها له وسألته:

- محمود يا ابن خالتي ما لك تبكي؟

صرخ محمود يخرج ما يعتمله قلبه:

- أمي قالت كلامًا كثيرًا لم أسمعه وأعِه، أذني كانت صماء.. للأسف اتضح لي أنني حمار كبير.. عرفت درسكِ يا أمي متأخرًا وعقابي كان ألمًا شديدًا.. إذا كانت أمي تربِّي البهائم فأنا كنت أكبر بهيمة، سامحيني يا أماه أنا بهيمة!

ذهبت عائشة نحوه تحتضن يداه بيديها وقالت له:

- اهدأ يا محمود، لا تقل على نفسك بهيمة، لقد عشت هذا كله كي تتعلم الصحيح والخطأ، تتعلم الأصول، القيم التي أرادتك أمك أن تتعلمها. المعرفة ليست مجانًا يا ابن خالتي، يلزم مقابلها ثمنًا كبيرًا.. وها أنت قد عرفت ودفعت الثمن.

- حتى أنتِ يا عائشة ظلمتك.. كُنتِ أمامي لهبك منيرًا لي حتى أخمدته وذهبت للظلام.. أخطأت حينما تزوجت جميلة.. لم أسمع كلام أمي حينما عرضت عليَّ أن أتزوجك.. آسف لما مررتي به من إحساس سيء كنتُ السبب فيه!

- هذا كان القدر، وأنا لست حزينة يا محمود.

بلع ريقه وسألها:

- تقبلين زواجي يا عائشة؟

ابتسمت له واهتز قلبها طربًا وانفرجت أساريرها وردت:

- موافقة يا محمود..

* * * *

جلست عائشة على الكنبة في الصالة تقوم بتطبيق الغسيل من السبت أمامها. كانت بطنها ممتدة للأمام من حملها الأول، مرَّت شهور على زواجها من محمود، وعمرت بيته سعيدة معه، وبعد انتقالها لبيته بخَّرته لتطرد رائحة جميلة، ولقد سمعت عنها أنها تزوجت من ابن عمها عاطف الحكيم، فما دعت لها سوى بأن يُسهِل لها الله وتبتعد عنها وأهلها بشرها وشر أبيها، وكذلك قضت يومها في الشقة السفلية حيث تجتمع العائلة وتنام في حضن محمود في الليل.

وقد تزوجت نجوى منذ مدة أيضًا، وأوصلوها لبيت عدلها فؤاد عبد السلام، ومحجوب قد خطب فتاة ويستعد لزواجها عما قريب في شقة تمليك اشتراها في القناطر الخيرية، وفرحان قد نجح في ثانويته ودخل كلية الحقوق، واستمر في التعليم بعد أن تخلَّص من أصحابه الصعاليك كما يجب أن يكون أي طالب جامعي يهتم بمذاكرته وحضوره المنتظم.

جاء محمود من العمل يحيي عائشة:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام يا حبيبي.

جلس بجانبها على الأريكة، فقامت تخلع له حذاءه وشرابه ثم عادت لمكانها تكمل تطبيق الغسيل، وسألته:

- كيف كان يومك؟

أجابها فرحًا:

- الحمد لله رُقِّيتُ.

تهلل وجهها فرحًا وقالت:

- حقًا! ألف مبارك يا حبيبي..
- الله يبارك فيكِ يا بركة البيت..

وقفت وقالت له:

- سأذهب لأضع لك الأكل.
- سلمت يداكِ.

وذهبت نحو المطبخ، وحدث نفسه ضاحكًا حين تذكر الماضي مع جميلة الحكيم:

- جميلة لم تكن تناولني كوب الماء.. الحمد لله.. بارك الله لك يا عائشة والله!

جاء محجوب وتبعه فرحان بينما تنصب عائشة منضدة الطعام، وسأل محجوب محمودًا:

- أعلمت ما حدث؟
- ماذا حدث؟!

فقال فرحان:

- عم شاكر مات تعيش أنت..
- مات حقًا؟!

فرد محجوب:

- أجل تُوفِّيَ صباحًا.
- لا إله إلا الله، هذا الرجل عاش آخر أيامه في غنى، ولكن للأسف حينما مات لم يأخذ معه أي شيء من الذهب، راح يقابل ربنا بإثم لم يُكفِّر عنه.
- هكذا تكون بئس الخاتمة يا أخي.. ربنا يرحمنا..
- آمين!

وقالت عائشة:

- تدوم أخوَّتكم يا أولاد خالتي، وتظلون دائمًا سندًا لبعضكم البعض ولأختكم.

وتبعها محمود:

- فعلًا أُخوَّتنا أهم.. لا أخ يضيق من نصح أخيه ولا أخ يُغير على أخيه ويظلمه.

وقال محجوب:

- الحمد لله أن الشيطان لم يقدر أن يكسرنا ويفرِّقنا..

ودعتهم عائشة للطبلية:

- هيا الأكل..

وجلسوا حول الطبلية يستلذون بالطعام الحلو في حبور وراحة بال...

* * * *

انتهى محمود من قص حكايته لأدهم، الآن فَهِم أدهم رفض والده نسمة بنت جميلة وعاطف الحكيم؛ من سرق كبيرهم إرثه، وقال له أبوه:

- للأسف يا أدهم لا يمكنك زواج نسمة، هذا عهد قضيته أنا وإخوتي، ألا تقترن عائلة الجميل بعائلة الحكيم ثانية.

بضيق تساءل أدهم:

- لِمَ على الأبناء تَحمُّل ما يفعله الآباء؟!

- إنه إرث يا أدهم سترثه أنت ونسمة، حتى هي.. ستمنعها جميلة وعاطف من القبول بك ومن داخلها هي تحبك! هكذا هي الدنيا يا أدهم للأسف وعليك أن تقبلها.

لم ينم أدهم ليلته، أرَّقه الحديث مع والده، أخذ يُقلِّب الأفكار في رأسه علَّه يجد حلًا للمعضلة فلم يظفر. غاب عن الكلية أيامًا، ولكنه اُضطُرَ أن يذهب في الامتحانات، وفي أثناء سيره في شارع الكلية ناداه صديق له يدعى أكرم كان يجلس على القهوة ينظر لورقة بيده بها مسألة فيزيائية، اتجه أدهم له يقف معه، فطلب منه أكرم أن يشرح له المسألة، وبينما هو كذلك إذ مرَّت نسمة من أمامه تنظر له وتكمل طريقها نحو الكلية ولم يستطع أن يوجِّه عينه على شيء آخر سواها وإذا بها تقف عند الناصية ترمقه، تظنُّه سيقدم إليها بعد أن يَفرُغ من أكرم. وجعل أدهم عينًا لأكرم وعينًا على نسمة، أخذ يشرح لأكرم المسألة التي بدت له عسيرة كالامتحان الذي سيواجهونه بعد قليل، وإذا به يفاجأ بأكرم يُخرج سيجارة من العلبة بجيبه وولَّعها وأخذ يسحب منها وينفث الدخان، فسأله أدهم مستنكرًا:

- ألم تترك التدخين منذ شهرين؟!

- أي والله! أجمل شهرين قضيتهما دون تدخين، ولكن ظروف الامتحانات جعلتني أعود إليه.

أنهى شرح المسألة له وفكر ما سيفعل مع تلك الواقفة تنتظره، تذكر كلام والده، لا يمكنه أن يتزوجها بأي حال من الأحوال، لن يستطيع مرافقتها في الكلية، اتجه للأمام ومشى، ومر من أمامها متجاهلًا وقوفها فصُدِمَت من فعلته، ولم تحب أن تناديه، لا تعلم لمَ خَفَقَ قلبها بشعور سيء، وبدأ تجاهله لها يظهر شيئًا فشيئًا، في المواصلات جلس بعيدًا عنها، في الكلية يتفادى النظر نحوها قدرما يستطيع، لقد فهمت الآن ما يرمي إليه، لا يمكن اقترانهما ببعضهما، إنه ينسحب بهدوء دون جلبة. حزنت بعض الوقت ثم ما

استطاعت كبح جماحها، ذهبت إليه ذات يوم في كافيتريا الكلية حيث يجلس وحيدًا وسألته:

- ألا تُحبُّني يا أدهم؟

فوجئ بها أمامه، ولم يدرِ ما يقول، استجمع ما تبقى من أعصابه وقال لها:

- لن يمكنني أن أتزوجك يا نسمة..

- لِمَ؟!

- ظروف عائلية.

انسكبت دموعها على خديها وقالت بسخط:

- أنت سيء يا أدهم!

ورحلت من أمامه، وهو يود ضرب أبيه وأعمامه وأبيها وأمها بالنار حتى يتسنى لهما الزواج والعيش راضيين ببعضهما بعيدًا عن خلافات الأُسرتين التي ورِثوها، وهي لا تعرف عن الماضي شيئًا كما يبدو.

أصبح يأتي الكلية، ويشعر بوجودها حوله طول الوقت، حاول إبعاد عينيه عنها فلم يستطع، رسب عاما في الكلية من كثرة التفكير فيها، وهي كذلك.. فوجئ بها معه تُعيد العام الدراسي ذاته، ستظل قريبة منه دائمًا، لا يستطيع التخلُّص منها ومن حبه لها، هذه معضلة جسيمة، هل ستظل أيامه كلها هكذا؟! يكاد العشق يُمرضه حقًا! قرر قرارًا شجاعًا لحل الأزمة، ذهب لوالده يومًا وقال له:

- لن أُكمل في كلية الهندسة سأُحوِّل لكلية التجارة!

* * * *

مسح أدهم الدموع عن عينيه حين تذكر نسمة وأبويه في تلك الصورة، وتذكر بعدها موت عمته نجوى فعمه محجوب، وهو أخذ يشغل نفسه بالعمل في ظل دراسته بالتجارة، كان ذلك بعد أن عادت الحياة طبيعة إثر أزمة وباء الكورونا التي نجت منها مصر، مرَّ على المحلات والصيدليات والمعامل والمصانع، عمل في كل مكان، جمع مالًا كثيرًا يحفظه في البنك، ووصل للثلاثين، وفوجئ بحمل أُمِّه على كبر، لم يفهم ما حدث يجعلها تحمل من جديد، فلام والديه على ذلك العبث العيالي. ونوَّر يحيى الوجود، وأحس أدهم بأنه قد وُلد من جديد، يشعر بأن يحيى ابنه لا أخوه، وماتت عائشة بعدها بسنوات قصار، وتبعها محمود أبوه فعمه فرحان المحامي، وبقي وحيدًا مع يحيى يرعاه، اشترى أرضًا بالوقف وبناها عمارة وترك منزل أهله القديم ذاك بشلقان، وفُتحت صفحة جديدة للعائلة بالحياة في الوقف، هما المتبقيان الوحيدان يحملان اسم محمود الجميل.

قلَّب الصورة، فوجد صورة لشاب يقف بجانبه في باحة كلية التجارة، فهتف باسمها:

- صديقي كمال الشوربجي..

وفي الصورة المقابلة، رأى نَفسَه في نفس سنّه الآن مع شاب بالمقهى، فاستعاد أيامه عن هاتين الصورتين، وهو يتلو أبيات الشاعر إبراهيم ناجي:

"رفْرَفَ القلبُ بجنبي كالذبيحْ وأنا أهتف: يا قلبُ اتّئدْ
فيجيب الدمعُ والماضي الجريحْ لِمَ عُدنا؟ ليت أنّا لم نعد!"

الصورة الرابعة

كان الليل يحف المنطقة التي يقع فيها ذلك المنزل المضاءة مصابيحه بغلاف أسود قاتم حزين بمحافظة الجيزة، ولم يعد هناك أي مارة أو جوالين هنا أو هناك، فقد كانت الساعة تشير لمنتصف الليل لإحدى أيام العشر الأواخر من شهر يوليو الحارة أجواءه. فإن اقتربت من ذلك المنزل ذي المصابيح المضيئة لرأيت تلك اللافتة بجانب بابه التي كُتب عليها بخط ثقيل (منزل كمال الشوربجي)، ولعلك أيقنت عند رؤيتك الخط الثقيل أن صاحب البيت يحب التمظهر أمام الغير باسمه، ولكن من يكون كمال الشوربجي هذا الذي كان قابعًا في ذلك الوقت على سريره في غرفته يسعل بشدة؟

كان كمال ذو سحنة مكفهرة حقًا، بشرة قمحية تميل للسمرة بعض الشيء، وشعره المموج يزيّن رأسه الشبيهة بالمستطيل، وكان في سريره يتلحف بلحافه من المرض، ويسعل سعالًا شديدًا، ولم يكن المرض جديدًا عليه، ولكنه قد بلغ أشده هذه المرة رغم عدم تعديه التاسعة والأربعين من عمره.

هو ذا كمال يسعل ويئن من التعب، فقد بلغت به الحمى أشُدها، وخارج الغرفة نسمع أنين وبكاء طفل لم يتعد العاشرة، لقد كان ابنه معاذ الذي يشبهه شكليًا بعض الشيء يبكي لما آلت إليه صحة أبيه من تدهور وعدم تأثير الدواء بجسده العليل.

ونسمع صوت باب المنزل ينفتح مؤذنا برجوع الابن الأكبر لكمال، وكان شابًا لم يتعدَ التاسعة عشرة، ابنه البكر أمجد ذو البشرة البيضاء التي ورثها عن أمه بثينة -رحمها الله- وعينيه العسليتين وشعره الأسود الناعم المستوي، ورأى أمجد أخيه معاذًا يبكي في الطرقة، فسأله في دهشة:

- ماذا هناك يا معاذ؟ ما لك تبكي؟!

رد معاذ، ولم يزل بكاءه:

- إن أبي مريض جدًا يا أمجد، ولا يمكنه الحراك.

زفر أمجد، وقال في سره:

- رأف الله بحالك يا أبي.

دلف أمجد غرفة أبيه كمال، واقترب من فراشه، وكان كمال يئن من التعب ويسعل بشدة، ويفتح عينيه بصعوبة، فسأله أمجد:

- ماذا حدث لك يا أبي؟ لقد كنت بخير صباح اليوم قبل ذهابي للجامعة.

بالفعل كان كمال يستطيع التحرك صباح ذلك اليوم قبيل ذهاب أمجد لجامعته حيث يدرس في كلية التجارة بعين شمس، وقد مرر على أبيه ليطمئن عليه بعد أن اشتد مرضه صباحًا قبل رحيله ليجده يتحرك

بسهولة، فاطمأن لحاله، وغادر ميسور الحال، ولكن والده الآن لا يستطيع حراكًا.

سعل كمال، وقال لأمجد بصعوبة:

- أمجد يا بني.. هات لي ورقة وقلمًا.. أسرع أرجوك..

وقطع السعال كلامه بينما تحرك أمجد سريعًا وسط صوت بكاء معاذ بالخارج ليجلب الدواء لأبيه من فوق المنضدة المواجهة للفراش الذي يرقد فوقه بدلًا من الورقة والقلم. ورجع به لوالده، وقال له:

- حسنًا اهدأ أولًا حتى أعطيك جرعتك من الدواء كي تُشفى.

فسعل كمال، وقال بصعوبة:

- أسرع يا أمجد بالله عليك هات الورقة والقلم، ودع الدواء جانبًا.. ورقة وقلم بسرعة.

فقال أمجد بتعجب:

- حسنًا!

واتجه خارج الغرفة مارًّا بمعاذ الباكي حتى وصل لغرفة المكتب الخاص بوالده، ومنها يدير عمله حيث يعمل بالبنك المركزي للمحاسبات، وأخذ من فوق المكتب بعض الورق من رزمة الأوراق وقلم من وسط الأقلام الموضوعة بالكوب الأزرق، وعاد لوالده في غرفته، وأعطاه ما جلب قائلًا:

- تفضل يا أبي..

أمسك كمال بالورق والقلم بيدين مرتعشتين، وزاد سعاله شيئًا فشيئًا، فخط بضع كلمات ثم ترك القلم يهوي على اللحاف، وربت أمجد على كتفه مردفًا في حزن:

- لا يمكن أن أظل ساكنًا؛ فحالتك صعبة جدًا، سأتصل بالطبيب..

أوقفه كمال من عدوه قائلًا بصعوبة:

- أمجد انتظر لا تفعل شيئًا..

فقال أمجد بدهشة مشوبة بالحنق على إرادة والده:

- لماذا؟! ماذا هناك؟!

- قُضِيَ الأمر يا أمجد، لم يعد لي وقت متبق في هذه الدنيا..

- ما هذا الكلام الذي تتفوه به يا أبي، اصبر لأتصل بالطبيب وستصبح بخير إن شاء الله.

يسعل كمال بشدة ثم يردف:

- كلا اسمعني جيدًا..

يمد له يده بالورقة التي خط عليها بالقلم منذ لحظات، وقال:

- خذ هذه الورقة..

أمسك أمجد بالورقة في دهشة مقطبًا حاجبيه، ويكمل كمال كلامه:

- تذهب أنت وأخوك إلى العنوان المكتوب بالورقة، هو سيساعدكما.. أخبراه من تكونان، وعليه البقية تأتي..

قال أمجد بتوتر:

- لا أفهم شيئًا مما تقول..

قال كمال بصعوبة شديدة وسط سعاله القوي:

- افعل ما آمرك به.. حافظ على أخيك الصغير، كونا دائمًا مع بعضكما البعض، ولا تتركه أبدًا، وعمك يوسف لا شأن لك به، ابتعدا عنه قدر المستطاع..

يسعل بشدة ولا يهدأ، فيصيح أمجد في معاذ:

- معاذ هات كوب ماء بسرعة..

يُحضر معاذ الكوب جريًا، فيأخذه أمجد منه، ويقدمه لكمال الذي توقف عن السعال فجأة، وسكن جسده عن الحركة. ناداه:

- أبي!

ولكنه يفاجأ بعدم ورود رد من والده.. يُقرِّب كوب الماء من فم والده، ويهتف:

- أبي، اشرب الماء. أبي، ها هو الماء..

لا رد من كمال، فقد صعدت روحه للمولى -عز وجل-.. يقترب معاذ من أبيه قائلًا:

- أبي.. أبي..

ينظر لأمجد بعين دامعة، ويسأله:

- أمجد، لماذا لا يرد أبي؟!

ينظر لوالده مرة أخرى باكيًا:

- أبي، أبي، رد عليَّ..

قال أمجد، وقد نزلت عبراته هو الآخر:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنا لله وإنا إليه راجعون..

لا زال ممسكًا بالورقة التي أعطاه إياها والده قبل موته بلحظات، نظر فيها، فوجد مكتوبًا بها: (أدهم الجميل.. بيت رقم ١٠ حارة التقسيم الجديد قرية شلقان مدينة القناطر الخيرية).

* * * *

بعد أيام، الرابع من أغسطس كانت الشمس ساطعة ذلك الصباح، وترسل أشعتها الذهبية عبر النافذة إلى أركان غرفة أدهم التي حوت سريره ومكتبه وكرسيه الجلدي المريح لعظامه، فإذا انتهيت من الغرفة نحو الصالة رأيت الطنافس على الأرض مُعدَّة للجلوس واستقبال الضيوف عليها، وكرسي في أحد الأركان لمن لا يستطيع الجلوس على الأرض، وبعد الصالة التي يواجهها باب الشقة الواقعة في الطابق الثاني من ذلك المبنى الذي يملكه أدهم ستجد غرفة نوم يجلس فيها يحيى أخو أدهم الشاب ذو الأعوام الواحدة والعشرين والبشرة القمحية والشعر الأسود الفاحم والبيجامة الصفراء يجلس فوق السرير ممسكًا بكتاب كلية التجارة التابعة لجامعة قنا الأزهرية يستذكره، وطُرقة بجانب الغرفة تؤدي لمطبخ واسع، وحمام يصدر منه صوت خرير المياه، وسرعان ما خرج أدهم ذو السبعة وأربعين عامًا والبشرة الخمرية والفودين الأشيبين والشارب الذي تتخلل شعيراته السوداء بعض البياض من حمامه يمسك بالمنشفة لينشِّف وجهه مارًا بشعره وأذنيه ورقبته ومنتهيًا بذراعيه ثم ملقيًا إياها على الغسالة النصف أوتوماتيك بالحمام، ومرَّ بالطُرقة نحو الصالة، فغرفته، مُغنِّيًا بصوت جهوري عذب كالبلبل مقطوعة أم كلثوم الشهيرة:

"كان لك معايا.. أجمل حكاية.. في العمر كله.."

أخذ يعيد نغمته وهو ينظر من نافذة الغرفة نحو الشارع الذي يستجمع ليستيقظ، ويكتظ بالسيارات والرجال الذاهبين نحو أشغالهم.

"سنين ومرت.. زي الثواني.. في حُبك إنت.."

أصبح الأمر مزعجًا ليحيى الذي يذاكر الآن رغم عدم شعوره بالاشمئزاز حيث يحب صوت أخيه، ولكنه لن يكتب بورقة الامتحان مقطوعات أغاني أم كلثوم لتُنجِّحه بدلًا من عبارات مواد القانون التجاري، أو الإدارة التمويلية، أو المحاسبة المالية، فترك كتابه، وقام من على سريره، وذهب نحو غرفة أخيه المقابلة حيث وقف يمسح شعره بيده اليمنى في سطوع الشمس عند النافذة، وقال ممتعضًا:

- يا عم وحِّد الله على الصبح!

فسكت أدهم عن الغناء، وقال ملتفتًا ليحيى:

- لا إله إلا الله، ماذا هناك؟!

- لا أستطيع الاستذكار من صوتك.

- وهل صوتي سيء؟!

- هذه هي المشكلة.. فلأنه ليس سيئًا يُذهب بتركيزي عن الكتاب لأسمعه.. ولكن ماذا كنت تفعل؟

قال أدهم، وهو يتجه نحو سريره ليلتقط سجادة الصلاة:

- لقد كنت أتوضأ لأُصلِّي الصُبح.

متعجبًا أردف يحيى:

- يا لمزاجك! هل يُعقل أن يتوضأ شخص ليصلي فيبدأ بالغناء؟!

رد أدهم ساخرًا مبتسمًا:

- وهل ترى أنك ستُفلح عندما تضحك على نفسك وتستيقظ صباحًا مُقنِعًا نفسك أنك ستستذكر دروسك؟

ضحك يحيى، وقال:

- لا أدري كيف لنا أن نكون إخوة!
- أخبرني متى تعود لسكنك الجامعي بقنا؟
- يومان أو ثلاثة وأرحل.
- حسنًا ركِّز في امتحاناتك فقط.

شهق يحيى ثم قال:

- إن شاء الله ربنا يسهلها..

والتفَّ خارجًا من الغرفة، وهو يقول:

- سأتركك لتصلي ولكن أرجوك لا أريد سماع صوت عبد الباسط حمودة من فيك اليوم.

ضحك أدهم، وقال:

- حسنًا سأُسمعك صوت عبد الباسط عبد الصمد في صلاتي.

هكذا يعيشان معًا وحدهما منذ انتهى عهد والديهما بعد مولد يحيى بسنوات قصار، فتعهد أدهم أمام الله أن يرعى أخاه خير رعاية، فأدخله المدرسة الأزهرية، ونجح الفتى في ثانويتها، والتحق أخيرًا بكلية التجارة بقنا، وارتحل في سكن الطلاب هناك ولا يعود إلا في الإجازات، أو عند انتهاء فترة إلقاء المحاضرات قبيل الامتحانات.

فرش أدهم سجادة الصلاة على الأرض موجِّهًا رأس المسجد المرسوم على السجادة نحو القبلة التي يعرف أنها نحو النافذة، ووقف على السجادة، وأقام الصلاة قائلًا بصوته البلبلي:

- الله أكبر الله أكبر.. أشهد ألا إله إلا الله..

وقطع صوته صوت انكسار زجاج نافذة شديد، كان الصوت آتيًا من الصالة، فهرع نحوها ليجد يحيى واقفًا أمام زجاج النافذة المواجهة للشارع منكسرًا على الأرض، فسأل يحيى بغضب:

- من كسره؟!

رد يحيى متألمًا:

- الولد حزقة بن سنية ألقى الحجر من الأسفل.

اتجه أدهم ها هنا نحو باب الشقة صارخًا بغضب:

- لأنك عيل لم يربِّك أبوك ولا أمك سنية.. أهي هيصة في أُم ذلك الشارع أم ماذا؟

وفتح الباب بغتة ليجد أمجد ومعاذًا أمامه قد كادا يقرعانه، فوقفا لرؤيته متسمِّرين حيث لاحظا الغضب باديًا على وجهه، فأزاح هو أمجد عن طريقه بيده صائحًا:

- وسِّع يا عم أنت وهو نشوف البلوى دي.

ونظر من عند شرفة الطابق نحو الأسفل حيث شقة سنية، وصرخ غاضبًا:

- يا حزقة لو مسكتك فلن أرحمك، اجلس بجانب أمك وقشِّر لها البصل أفضل لك.. أتسمعني أم أنزل لأُسمعك؟ عيال متخلفة!

عاد أدراجه للشقة مارًا بأمجد ومعاذ المذهولين، وكاد ليغلق الباب لولا أن لاحظهما أخيرًا، فالتفت لهما راجعًا، تأملهما لثوان ثم سأل متعجبا:

- من أنتما؟!

فسأل أمجد بأدب:

- حضرتك أدهم الجميل؟

فرد أدهم بصرامة:

- أجل أنا، من أنتما؟ وأرجو أن تجيب دون سؤال يا صغيري.

فرد أمجد:

- أنا أمجد كمال الشوربجي..

اندهش أدهم، وسأل:

- أحقًا ما تقول يا بني؟ كمال الشوربجي والدك؟!

- أجل.

- آه يا عزيزي كمال، لم أره منذ مدة.. تفضلا..

دخل الفتيان الشقة، وقال أمجد:

- أنا آسف لقدومي دون موعد، ولكنها كانت رغبة أبي أن ألجأ لك قبل موته.

صُدم أدهم بشدة، وسأله:

- قبل موته! ماذا تقصد؟!

- والدي كمال تُوفِيَ منذ مدة.

- ماذا؟!

كل ما خلَّفه الخبر على وجه أدهم هو الدهشة والصدمة الشديدتين.

* * * *

أجلس يحيى أمجد ومعاذًا على الطنافس بالصالة، وذهب نحو المطبخ ليحضر كئوس الشاي بينما جلس أمامهم أدهم قائلًا بحزن باد على وجهه:

- إنّا لله وإنّا إليه راجعون.. كمال صديقي وحبيبي تُوفي منذ مدة ولم أدري! آسف لمصابكما يا أبناء الغالي.

جاء يحيى، فوضع صينية الأكواب على منضدة أمام الصبيين، وفرَّق الأكواب عليهم ثم جلس بجانب أخيه يرتشف من كوبه الشاي الساخن، وسأل أدهم أمجد:

- ولكن لم أفهم لمَ دلَّكما كمال -رحمه الله- عليَّ؟!

رد أمجد وهو يرتشف الشاي:

- ولا نحن نفهم أو نعلم.

سأله يحيى باستنكار مقطبًا حاجبيه مبعدًا الكوب عن فيه:

- كيف لا تعلمان؟

أخرج أمجد الورقة التي كتب كمال عليها العنوان قبل موته، ومررها لأدهم قائلًا:

- قبل أن يقضي نحبه بلحظات أعطاني تلك الورقة المكتوب بها عنوانك، وأخبرني أن آتي لك مشيرًا أنك القادر على مساعدتنا، وطلب مني الابتعاد عن عمي.

فقال أدهم بتعجب:

- عمك عمك يوسف!

فرد معاذ:

- أجل يا عم.. أتعرفه؟!

فقال أدهم بامتعاض:

- أجل أعرفه ويا ليتني لم أعرفه.. شخصية مستفزة وآسف على ما أقول ولكنها الحقيقة، وما بقلبي على لساني.

قال أمجد بأسى:

- عاش أبي وعمي فترة حافلة بالمشاكل منذ مدة، ويحاول عمي الآن أن يستولي على أملاك أبي التي لا نعرف لها مخبئًا حتى الآن.

قال أدهم بتعجب:

- أول مرة أرى توأمان مثلهما.. قطبان متضادان في كل شيء تقريبًا.

- فعلًا.

رن جرس الباب، فذهب يحيى ليفتحه قائلًا:

- عن إذنكم سأفتح الباب.

فقال له أمجد:

- تفضل.

فتح يحيى الباب، فوجد ساعي البريد أمامه يقول:

- البوسطى.. ملفوف للأستاذ أدهم الجميل.

فسأل يحيى:

- مِن مَن؟! أنا أخوه هات الطرد.

أعطاه الساعي صندوقًا ورقيًا صغيرًا بحجم كف اليد أو يزيد، وأعطاه ورقة وقلمًا ليوقِّع باسمه بالاستلام قائلًا:

- لم أُخبَر مِن مَن.. وقِّع باسمك على الورقة.

وقَّع يحيى على الورقة ثم أعطاها والقلم للساعي الذي قال مستديرًا للذهاب:

- بالإذن..

- إذنك معك.

ورحل الساعي، وظل يحيى واقفًا في صدر الباب ينظر للصندوق الورقي الصغير متسائلًا عما يحويه، وجاءه نداء أخيه أدهم من الصالة خلفه:

- أهناك خطب ما يا يحيى؟

دخل ها هنا يحيى مغلقًا الباب، وذهب لأدهم، وأعطاه الطرد قائلًا:

- هذا طرد جاء لك.

أمسك أدهم الصندوق متعجبًا ثم سأله:

- مِن مَن؟!

- لا أدري.. افتحه لنر ما فيه.

لم يستلم طردًا منذ زمن. أحس بشيء خاطئ يحدث غير مرغوب فيه. فتح الصندوق، فأخرج من باطنه مفكرة جلدية صغيرة بحجم كف اليد سوداء اللون عدد صفحاتها بعدد أيام السنة. قال يحيى:

- إنها مفكرة!

فتح أدهم المفكرة ليجد مكتوبًا بخط يد جميل في صفحتها الأولى: (مفكرة كمال الشوربجي). نظر لأمجد ومعاذ بدهشة، فسأله أمجد:

- أهناك خطب ما.

فقال يحيى له بعد أن قرأ العبارة:

- هذه المفكرة لوالدك!

ظهرت الدهشة عليهم جميعًا، ولم يفهم أي منهم ما يحدث أبدًا، فتح أدهم صفحة الثاني من يناير بالمفكرة، فوجد مكتوبًا:

(أما براوة براوة أما براوة.. دوار حبيبي طراوة آخر طراوة).. نظر يحيى للمكتوب بدهشة، وقال:

- أما براوة براوة أما براوة.. دوار حبيبي طراوة آخر طراوة.. هذه أغنية نجاة الصغيرة!

فقال أدهم بحيرة:

- أجل إنها أغنيتها.

فقال معاذ:

- أبي كان يحب سماع أغاني نجاة.

- أجل أعلم هذا.

قلَّب الصفحة نحو صفحة الثاني من أغسطس، فوجد مكتوبًا بها:

(قُلة حبيبي ملانة عطشانة يانا.. أروح له ولا أروَّح أشرب حدانا)..

قلَّب بعدها نحو صفحة الرابع من فبراير، فوجد مكتوبًا:

(حبيبي لما لقاني مريت قباله.. شال طرف شالي وسقاني وطرف شاله)..

فقال لهم متعجبًا:

- يبدو أنه قد كتب الأغنية كلها..

قلَّب عدة صفحات، فوجد صفحة تسقط من المفكرة بيوم الرابع من أغسطس بها كلام مسترسل، التقطها ونظر بها بينما قال يحيى:

- هذا تاريخ اليوم؛ الرابع من أغسطس.

فقال أدهم:

- أجل ثوان لنقرأ ما كُتب.

وأخذ يقرأ ما في الورقة:

(إلى صديقي أدهم الجميل، إذا كنت تقرأ هذه الرسالة فحتمًا قد وافتني المنية، وإني لأترك في ذمتك ولديَّ الاثنين ميراثهما، فهناك من الناس من لا يحب لهما الخير كما لم يحبوه لي، فاحذر هؤلاء الناس، ولا تسلِّمهم شيئًا مما أعطيتك.. صديقك القديم كمال الشوربجي).

نظر الكل في دهشة وتعجب لبعضهم البعض. قال أمجد:

- ماذا يعني هذا؟!

فقال له أدهم بعد برهة من الصمت والتفكير:

- أظن أنكم ستشرفوننا مسكننا لمدة.

* * * *

استقر بالصبيين المقام في منزل أدهم ذلك اليوم، وآواهما يحيى بغرفته معه واعدًا إياهما أنه سيتركهما فيها وقت ذهابه للامتحان بقنا قريبًا. دلف أدهم لغرفته، وجلس إلى مكتبه مُمسكًا بالمفكرة متأملًا إياها والرسالة التي قرأها، وشعر بخطورة الأمانة التي تركها له كمال صديقه منذ القِدَم، دلف يحيى عليه الغرفة، وسأله مقتربًا منه:

- ماذا تنوي أن تفعل يا أدهم؟

زفر أدهم ثم قال تاركًا المفكرة على المكتب:

- طبقًا لكلام الرسالة التي تركها كمال والتي يؤكد ولداه أنها من خطِّه هو، فقد ترك لي كمال -رحمه الله- لغزًا لأحله يُوصلنا في تضاعيف حله لميراث الولدين دون أن يستولي عليه أحد.
- وهل تستطيع تحمل تلك الأمانة؟

- لا أدري.. ولكن صديقي ائتمنني عليها ويجب أن أؤدِّي الأمانة.

فهتف يحيى مازحًا:

- الله على أخلاقك يا مطرب! ومن أين تعرف صديقك هذا؟

- لقد عرفته زمان أيام كنت في كلية التجارة ولكنه قد تزوج، وذهب ليعيش في الجيزة، ومن حينها لم نتقابل كثيرًا، ولكننا آثرنا الاتصال كل فترة وأخرى نطمئن على حالنا بعضنا حتى انقطع الاتصال تمامًا لمشاغل الحياة.. كانت لنا أيام حلوة في الجامعة، آه من الأيام!

وبتردد قال كأنما لمحت في عقله الذكرى فجأة:

- لحظة.. هل يعقل؟!

سأله يحيى متعجبًا مقطبًا حاجبيه:

- ماذا بك؟!

فكر أدهم بصمت لبرهة ثم قال ناظرًا ليحيى:

- لقد تذكرت أمرًا كمال كان يحب فتاة بالجامعة تدعى نجاة!

فقال يحيى مندهشًا:

- حقًا لهذا قد كتب أغنية نجاة في المفكرة؟!

- ربما ولمَ لا؟ أذكر أنهما كانا متحابين لدرجة كبيرة حينها، ولولا والد نجاة من كان يرغب في صاحب الملايين زوجًا لابنته لكان تزوجها كمال.

- حسنًا.. سأدعك بمفردك تفكر في ذلك الموضوع، وبالنسبة للولدين سآخذهما لينا ما بغرفتي، هناك سرير إضافي.

فقال أدهم ضاحكًا:

- أنت غلام أصيل، يا أصيـــــــــــل..

مطَّ لسانه في ياء أصيل، وتركه يحيى المبتسم بعدها وحيدًا في الغرفة مُغلقًا خلفه الباب كما طلب منه.

أمسك أدهم بالمفكرة، وضوء الشمس يخفت بعض الشيء في الغرفة وقت الأصيل، فأدار المصباح المتدلي من السقف فوق مكتبه، وأضاء بضوء أصفر يُعزز الرؤية، وفتح المفكرة قائلًا:

- ماذا وراؤك يا كمال؟

أخذ يمرُّ على صفحاتها رويدًا رويدًا منذ الأول من يناير، فوجد مقالًا عند صفحة الثالث عشر من يناير:

(الثالث عشر من يناير عام ١٩٩١م..

أول يوم أقابل فيه نجاة، الوحيدة التي سحرتني بعينيها في كلية التجارة، كانت جالسة تستمع لأغنية نجاة الصغيرة على سُلَّمِ الجامعة، وتتندن معها:

- أما براوة براوة أما براوة.. دوار حبيبي طراوة...

وحينها تعرَّفتُ عليها، ووقعتُ في حبها، يوم لعمري لن أنساه أبدًا، حُفرت في قلبي حروف اسمها بالترتيب.. ن ج ا ة)..

قال أدهم لنفسه بعد قراءتِه تلك الصفحة من مذكرات كمال:

- يبدو أنه لم ينسها حتى بعد زواجه من غيرها!

قلّب الصفحات حتى وصل لمقطوعة أخرى من أغنية نجاة في صفحة الرابع من فبراير:

(حبيبي لما لقاني مَرِّيت قباله.. شال طرف شالي وسقاني وطرف شاله)

وصل لصفحة السادس من فبراير، فوجد مقالًا آخر:

(أصبحت أيامي جميلة مذ عرفتُ نجاة، وكأنني ولدت من جديد في الدنيا، صوت ضحكتها يُداعب مخيلتي دائمًا لا أنساه. قابلتها في الحديقة، وكانت أول مقابلة لنا بعد التعارف. لاعبتني حينها لعبة الشفرات التي أحبَّت لعبها، كيف تُحوِّل الحروف أرقامًا حيث لا يُدرك أي شخصٍ ما تريد أن تصل إليه. بعدها ذهبنا لنأكل الأيس كريم، وجلسنا على شاطيء النيل ندلِّي أقدامنا في المياه الساحرة، وبعدها أوصلتها منزلها، وقلت لها لأول مرة:

- أُحبُّكِ يا نجاة..

صمتت برهة بعد ما يشبه صدمة، وقالت في فجأة:

- وأنا أيضا أُحبُّكَ يا كمال.

وكانت أجمل مقولة سمعتها في حياتي

زفر أدهم مللًا، وسأل نفسه:

- هل سأظل في قصة الحب العتيقة تلك طوال الصفحات؟!

أكمل عدوه في الصفحات مارًا بصفحة الثاني من أغسطس ليجد مقطوعة أخرى:

(قُلِّة حبيبي ملانة عطشانة يانا، أروح له ولّا أروح أشرب حدانا)

فسأل متعجبًا:

- لمَ المقطوعات غير مُرتَّبة في الصفحات؟!

انتقل لصفحة التاسع من أغسطس ليجد مقطوعة من ذكريات كمال يقول فيها:

(أسوأ يومٍ مرَّ عليَّ في حياتي؛ يوم أن تقدمت لخطبة نجاة، فرفضني والدها لغرض في نفسه المريضة. يريد أن يزوِّجَ فتاته لثري، واستخسرها في من هو مثلي ممن لا حيلة لهم لجلب الألوف المؤلَّفة مباشرة بعد تخرجهم من الجامعة. هذه ذكرى سوداء يجب أن أدفنها في ثنايا الأرقام والحروف. ولأكونن ذلك الثري يومًا ما، وأكيد والدها)

تذكر أدهم ذلك اليوم حيث قابل كمال حزينًا يكاد يبكي من الحزن، ولمسته الكآبة أيامًا، وأقام الحداد في تلك الأيام، وحاول أدهم إقناعه بتقبُّل القدر والمصير، فقنع بعد حين، وارتبط بكثير من الأعمال حتى يُشغِل تفكيره عن نجاة ووالدها، وعمل معه بالأشغال الشاقة علَّه ينسى، وربح مسابقة الجهاز المركزي للمحاسبات، وظفر بالوظيفة المرموقة، وسنون أُخر حتى وصل لمال وفير يحقق له الحياة الرغيدة له ولأولاده فيما بعد، واقتنع بقول أدهم: (كما كانت هناك نجاة، فهناك أترابها).

فرَّ بعض الصفحات ليصل لورقة الثالث من سبتمبر المكتوب بها:

(يا ناس لوموني لوموني ما ترحموني، أحب لوم العوازل لما يلوموني)

وفي ظهر الورقة وجد مقطوعة طويلة من المذكرات إياها:

(إنها المرة الأخيرة لي على ما أظن بين صفحات تلك المفكرة، فبعد أن علم أخي يوسف عنها، وهو لا يهدأ عن التربُّصِ بها، فبعد أن أمسكت بذلك اللص الذي كلَّفه بسرقتها، أدركت أنه لا مناص من إبعادها عن المنزل، ولقد اشتد بي المرض وتضاعف، ولا أقدر على حماية ما تحويه تلك المفكرة من كنز قد تركته لطفليَّ العزيزين أخذت أجمعه لهما في سنوات، لقد عانى أخي من عقدة غنى الأخ، ورغم مساعداتي المالية له

في شدائده ليقف على قدميه إلا أنه لم ييأس من الاستيلاء على ما أملك آخذًا ذلك منهاجًا للحياة السهلة دون عناء، وحرمان طفليَّ من حقِّهما، لعن الله رفقاء السوء من حولوه منذ الصغر للشر، فلأتركن تلك المفكرة بين يدي رجل أأتمنه على ما تحويه من أسرار، وحالما يفك سر الأرقام والحروف، فسيعرف يقينًا أي كنز قد تركته للصبيين، لقد أزفت الآزفة، وليس لها من دون الله كاشفة، وإني لمؤمن أن يبعث الله للصبيين الخضر ليحفظ لهما كنزهما).

وكانت الصدمة والدهشة حليفة أدهم ها هنا، لقد أرسل له كمال المفكرة التي تمثل مفتاحًا لكنز قد حفظه لولديه من عمهما يوسف المحتال الشرير، وهو مُكلَّف بفك شفرة المفكرة ليعرف كيف يحصل على ذلك الكنز...

* * * *

في اليوم التالي، الخامس من أغسطس، استيقظ أدهم كما يستيقظ كل يوم صباحًا، فارتدى جلبابه الأصفر، وجاء ليخرج من الشقة، فأوقفه صوت أمجد من خلفه:

- عم أدهم..

التفت إليه أدهم سائلًا:

- أنت مستيقظ باكرًا يا فتى لمَ؟!
- لقد اعتدت الاستيقاظ في تلك الساعة.
- حسنا أنا ذاهب لجلب الفطور لكم.
- هل لي أن أصحبك؟ أود رؤية القرية.

ابتسم أدهم، وقال:

- حسنًا أيها المدني، ستكون مرافقي.

وارتدى أمجد قميصه الكاروهات الأحمر مع سواد الأكمام، وبنطاله الجينز الأزرق، وخرج مع أدهم يصحبه مشيًا نحو القرية، فمرُّوا بالمقهى الملتصق بالمبنى الذي يمكثون فيه، فقال له أدهم:

- هذا هو مقهانا الذي نرتاده، سيكون لك نصيب من الجلوس فيه.
- لم أجلس في مقهى من قبل.
- لا تملك مقاهي المدينة عطر مقاهي القرى المميز، ستجد ها هنا مقهى أصيلًا يمتاز بمن يلعبون الطاولة والدومينو لا من يمسكون بأذرع الكمبيوتر للعب كرة القدم التي لا تفيد الذهن، تلك الألعاب التي ما أنزل الله بها من سلطان.

مشيًا على جانب الطريق بعيدًا عن السيارات القادمة والمُدبِرة، وعلى ناحية الطريق الآخر تجلى النيل واضحًا، والشمس تداعب بساط ماءه ليسطع. وصلا للمسجد الكبير المزخرف، فقال أدهم:

- هذا هو مسجد أبو بكر الصديق، وهو من أجمل المساجد في القرية، أُحبُّ قضاء ليالي رمضان فيه.

فقال أمجد مبتسمًا:

- إنه بديع حقًا!

ومضيا في طريقهما حتى وصلا لمطعم الفول والفلافل، فدلفه أدهم، وبقي أمجد خارجه قرب طاسة القلية ينظر الطريق ومارِّيه، وطلب أدهم طلبه من الواقفين داخل المطعم يُكيِّسون الطلبات للزبائن، وجاء

الطاهي بطبق الطعمية لهم، فقاموا بوضعه في قراطيس ورقية مخروطية، وأعطوا لأدهم قرطاسًا بما طلب في حقيبة بلاستيكية حوَت كيسًا مليئًا بالفول مع كيس آخر من الباذنجان المقلي، وكيس من المخللات. خرج أدهم لأمجد بالحقيبة قائلًا له:

- هيا يا أمجد لنعُد..

ولكنه وجد أمجد منشغلًا بمراقبة فتاة شابة ترتدي عباءة ريفية، وتضع الطرحة البنفسجية فوق رأسها، ذات وجه خمري تبتاع البقدونس من سيدة تفترش الأرض أمام المطعم، فناداه أدهم ليوقظه من النوم في براثن جمال الفتاة، فانتبه أمجد له، وقال:

- آسف، هيا بنا.

وعادا من نفس طريقهم، فسأله أدهم مبتسمًا:

- ماذا؟! أأعجبتك الفتاة؟

تلعثم أمجد، وقال بخجل:

- الصراحة أجل، لأول مرة أرى فتاة ريفية جميلة.

- هكذا هم الشباب، من يعيش منكم بالمدينة ينبهر بفتاة القرية المتحفظة، ومن يعيش بالقرية يود أن يلفت انتباه مدنية متبرِّجة.

فقال أمجد بعد برهة صمت وتفكير:

- ربما..

- ولكن أصبحت فتيات القرية كذلك يقلِّدن المتبرجات للأسف في ذلك الزمن..

ثم استطرد قائلًا:

- حسنًا دَعك من هذا الموضوع.. أخبرني عن عمك يوسف.
- عمي يوسف.. ماذا عنه؟
- كيف يعاملكما؟ ما أحوال علاقته بكما؟
- سيئة لأبعد حد تقريبًا، لا أحب أن أراه، لم يأت لعزاء والدي، وجاء ذات يوم يسألني إذا ما ترك لي والدي شيئًا لأحفظه.
- يسأل عن المفكرة؟
- ربما..
- حسنًا، سنحل تلك المعضلة قريبًا لا تقلق.

وهكذا رجعا ليمرا بذات المسجد، فذات القهوة، فذات المبنى، فقبوعًا بذات الشقة.

قال أدهم لأمجد بعد دخولهما الشقة:

- اذهب لغرفتك حتى أُناديك للإفطار، وأرسل لي يحيى حتى يُعدَّه.
- حسنًا يا عماه.

جلس أدهم على إحدى الطنافس في الصالة أمام التلفاز الذي أداره بالريموت، وتابع نشرة أخبار الصباح التي أذاعت أنبائها تلك المذيعة الصارخ جمالها التي يعلم أدهم أنهم اختاروها لتقدم تلك النشرة لبروزات جسدها وجمال وجهها، وإلا ما كانوا ليظهروا كامل جسدها في النشرة رغم عدم الحاجة لذلك، ولكنه أدرك أنه مضطر ليسمع منها الأخبار. خرج يحيى عليه يفرك عينيه بعد الاستيقاظ، ورآه يتابع المذيعة بالتلفاز، فقال له ساخرًا:

- صباح الخير يا عم شيرلوك هولمز.

نظر له أدهم، وأردف بابتسامة:

- صباح الخير يا عم اللمض.
- أخبرني، أحللت اللغز أم لا؟
- كلا لم أحله بعد.
- حسنًا، سأدخل لأتوضأ وأرجع لأصلي الصبح، ثم أُعدُّ الإفطار.
- حسنًا اسرع.

ثم سأله بغتة قبل أن يمضي:

- أخبرني ماذا يفعل الولدان؟
- لقد استلقى أمجد بجانب أخيه لتوه، أشعر أن البيت أصبح مفتوحًا للاجئين!

قال أدهم محتجًا:

- إياك وقول مثل ذاك الكلام الأحمق! افعل الخير لغيرك دون التفوُّه بما لا يليق. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت..

قال يحيى بيأس:

- أدعو الله ألا ننتهي إلى مشكلة لا تُحل.
- ما من مشكلة في حياتك ليس لها حل.

وذهب يحيى للحمام، ورنَّ جرس الباب، فذهب أدهم ليفتحه تاركًا التلفاز عاليًا صوته، وانفتح الباب عن آخر شخص توقع رؤيته في تلك اللحظة. هو كما يذكره تمامًا. نسخة سيئة الطباع من توأمه كمال؛ إنه يوسف الشوربجي..

هتف أدهم مندهشًا:

- يوسف.

فقال يوسف مبتسمًا ببرود:

- جيد أنك تتذكرني منذ أيام الجامعة.

ودخل يوسف للشقة رغمًا عن أدهم الواقف أمامه ويتابعه ببصره فسأله بحدة:

- ماذا تريد؟

فقال يوسف ببرود:

- علمت أن أبناء أخي هنا، فقررت زيارتهما للاطمئنان عليهما.

فقال أدهم ساخرًا:

- فيك الخير والله، ألم تود سرقتهما منذ مدة؟

نظر له يوسف بغضب، وقال:

- من أين لك أن تعرف حدثًا كهذا؟

- لا شأن لك من أين لي أن أعرف، علمته وكان ما كان، ماذا تريد الآن؟

قهقه يوسف، وقال:

- معنى كلامك أن المفكرة معك.

صُدِم أدهم لذكاء يوسف، ورأى ابتسامته، فأحس بالخطر منه، ولكن يوسف باغته بقوله:

- كم تريد ثمنًا لتركها؟

- ماذا؟

- كم من النقود تريد مقابل أن تتركها لي؟

بصرامة أجاب أدهم:

- لا أريد شيئًا.
- سأعطيك ألف جنيه وتعطيها لي.
- قلت لك أنني لا أريد أي نقود.

بغضب سأله يوسف:

- إذن ماذا تريد؟
- لا شيء.
- سأعطيك ألفي جنيهًا.

صمت أدهم مشمئزًا، فقال يوسف:

- حسنًا لنجعلها ثلاثة آلاف جنيهًا.
- حرام عليك ما تفعل! أهكذا تفعل مع أخيك وأولاده؟

قال يوسف بضيق:

- لا أعلم لِمَ لجأ إليك أنت! يبدو أنك ستُصعِّب الأمور.
- الأمور صعبة دون تدخلي.
- وجودها معك ليس له فائدة، أنت لا تعرف ما تحويه.

تعجب أدهم، وسأله:

- أتعرف أنت؟
- ممكن، ولِمَ لا؟
- لو كنت تعلم ما كنت لتجئ وتطلبها.

قال يوسف بغيظ:

- أنت عنيد جدًا.

- شكرًا لك على الثناء، والآن أرجو أن ترحل من منزلي، فأنا على وشك الإفطار، ولا أحب مجيء ضيف على الطعام.

زفر يوسف ثم قال:

- احذر لنفسك الأيام المقبلة يا أدهم.

أشار أدهم للباب، فخرج يوسف من أمامه بعد نظرة الشزر، وأغلق أدهم الباب خلفه، وخرج ها هنا يحيى من الحمام قائلًا:

- ما كل ذلك الضجيج على الصبح، من كان هنا؟

تعجب له أدهم، وسأله:

- إذا كنت قد سمعت الضجيج لمَ لَمْ تخرجْ لتستطلع ما يحدث؟!

وصدر صوت انكسار زجاج نافذة فجأة، فصرخ أدهم بغضب:

- ابن سنية الكلبة مرة أخرى!

* * * *

وكان سلوان مَن بالمنطقة في المساء ذلك المقهى الملتصق بمبنى أدهم التصاقًا، فإذا خرجت من المبنى وانعطفت لليمين، فستجد باب المقهى المفتوح على مصراعيه، وترى تلك الشاشة الكبيرة في الجانب الأيمن التي يشاهد فيها رواد القهوة مباريات كرة القدم، وشاشة أخرى يجلس أمامها اثنان من المراهقين دائمًا قد يثبتان أو يتغيران يمسكان الأذرع الإلكترونية يلعبان لعبة كرة القدم أيضًا، فكرة القدم تجمع العقول والشعوب بمختلف الأديان في ذلك العصر كما يرى أدهم، فإن نظرت إلى يسارك من دخولك، فستجد هؤلاء الشيوخ يجلسون يطرقون بالزهر على الطاولة، أو بأحجار الدومينو على الرقعة الخضراء، أو تحريك

أحجار الشطرنج على المربعات المتباينة بين الأبيض والأسود، وفي مواجهتك ترى ذلك البار ذا الكراسي الخالي معظم الوقت يقف من خلفه القهوجي وربما صاحب المقهى، ومعهما ثلاجة المشروبات وبرادات السوائل الساخنة، وصنابير المياه فوق الحوض، بالإضافة لكنيف في الركن الأيسر في الخلف. وتصدر من المسجِّل أنغام أغنية أصالة نصري تقول بصوت جهوري أخَّاذ:

ليه بنادي الناس باسمك
وأبقى خايفة إني أخاصمك؟
ليه بشوف الكل شكلك؟
ليه بعيش دايمًا مشاكلك؟
حاسَّة إن نصي شكلي
وإن نصي التاني شكلك.

دخل أدهم القهوة، فرأى القهوجي يغسل الأكواب عند الحوض، ودخان يملأ المكان لشيخ يدخِّن كمدخنة، فجهل القهوجي الذي بدا له جديد الوجه. جلس على أحد كراسي البار قائلًا للقهوجي الذي وضع الأكواب على البارِ رصًا:

- السلام عليكم.

رد القهوجي ناظرًا له:

- وعليكم السلام، تفضَّل.

سأله أدهم متعجبًا:

- أأنت جديد هنا؟!

فرد القهوجي مبتسمًا:

- أجل يا باشا محسوبك مروان.
- أهلًا يا مروان! أنا أدهم الجميل، أسكن في المبنى بجانب القهوة..
- عاشت الأسامي يا أستاذ أدهم، تشرفنا.. أي مشروب تودُّه؟
- شاي بالنعناع.
- فورًا.

واتجه مروان نحو براد الشاي، وأخذ كوبًا ليحضر فيه الشاي منشغلًا بتحضيره، وكان مروان ذا سحنة مبهجة فعلًا، ثغره باسم بطبعه بالإضافة لبياض بشرته.

ودخل ها هنا يحيى، وجلس بجانب أدهم على كرسي آخر، وقال محييًا بيده:

- السلام عليكم.

فرد مروان، وكذلك أدهم بتعجب واستنكار:

- وعليكم السلام.

ثم سأله متبرمًا:

- ما جلبك يا يحيى؟

فرد يحيى:

- نفسي تطوقُ لقدحٍ من القهوة، ثم لا تقلق على العصفورة في غرفتك، فالولدان في الشقة.

فقال أدهم بسرعة:

- صِه! اسكت.

سأل مروان يحيى بسوقية:

- أأصنع لك القهوة يا عمهم؟

- صنعت لي الخير والله يا ريس، مظبوطة وحياتك.

ثم قال أدهم ليحيى مؤنِّبًا إياه بصوت خفيض:

- ألم أقل لك ألا تتحدث عن موضوع المفكرة أمام الناس؟

قال يحيى بلا مبالاة:

- وهل يدري أحد شيئًا عنها؟

- صه! واسمع الكلام منفِّذًا فقط.

فقال يحيى بضيق:

- حسنًا..

ودخل ها هنا ذلك الشاب الغريب عن الأوجه الجالسة، فاتخذ مقعدًا بالقرب من أدهم ويحيى محييًا:

- السلام عليكم.

فرد الأخَّان:

- وعليكم السلام.

فصاح الغريب بمروان مشوحًا:

- رد السلام يا قهوجي.

فنظر مروان له باشمئزاز وقدح القهوة يُحضِّره على البوتجاز، وقال:

- وعليكم السلام.

فسأل أدهم الغريب:

- أنت تسكن في البيت المقابل لبيتنا، لقد رأيتك لأول مرة صباحًا، أأنت جديد بمنطقتنا؟

فرد الغريب:

- أجل لا زلت جديدًا.

- أرجو أن تنال قريتنا إعجابك.

فأردف مروان:

- يا ليتها تُعجب سيادته!

فهمس يحيى لأدهم:

- مال هذان الاثنان؟

فرد أدهم هامسًا:

- لا أدري، بينهما غضاضة بلا شك!

بينما رد الغريب على مروان ببرود:

- المكان يعجبني يا قهوجي..

فسأله أدهم:

- ما اسم الكريم؟

فرد الغريب:

- ماجد.

- عاشت الأسامي يا أخ ماجد.

- وأنت أدهم أليس كذلك؟

فقال أدهم متعجبًا من معرفة ماجد به:

- أجل! كيف علمت باسمي؟

- سمعت شجارك مع السيدة أسفل بيتكم.

ضحك أدهم ملء شدقيه مع يحيى، وقال:

- سنية وابنها حزقة! عالم وسخة، حزقة كسر زجاج النافذة الأخرى اليوم صباحًا، أطفال اليوم شياطين.

وضع مروان الشاي لأدهم، والقهوة ليحيى، وقال لأدهم بعد سماعه لعبارته الأخيرة عن الأطفال:

- احذر، فالمشاكل لا تأتي إلا من الأطفال فقط.

فقال ماجد:

- كلا، المشاكل تأتي من الأطفال، ومن اللصوص كذلك، ولقد سمعت أن لصوص البلدة كُثُر.

فقال مروان بضيق:

- ليس كل من يسرق يأكل الحرام، فهناك من يسرق الغني ليعطي الفقير.

فقال يحيى وهو يرتشف قهوته:

- أجل لقد رأيت ذلك الفيلم روبن هود، وأظنك تقصده.

- أجل شيء كفكرته.

فقال أدهم لمروان راشفًا بعض رشفات من الشاي:

- وهل الفقير ذاك يكون راضيًا عن من يسرق لأجله ويعطيه مما سرقه؟!

فرد مروان ببلادة:

- لا يهمُّه طبعًا، لن يسع البني آدم أن يُرضي كل خلق الله..

نظر أدهم لماجد ثم قال بهدوء:

- قد تكون جديدًا هنا، ولكن عندما تعاشر أهل البلدة هنا ستجدهم طيبين، ليس كل ما تتلوه الألسنة أو ما تسمعه الآذان صحيحًا.

وضع أدهم الكوب فارغًا على البار، ووقف تاركًا بعض الجنيهات الفضية لمروان بجانب الكوب، وقال لأخيه:

- انته من قدحك دعنا نرحل.

وقف يحيى بعد أن فرغ من قدح القهوة، وقال أدهم لمروان مشيرًا للجنيهات:

- هذا حساب الشاي والقهوة يا مروان.

- خلِّي يا أستاذنا.

- الله يخليك.

ثم استدار، وقال مودعًا:

- السلام عليكم.

وخرج أدهم ويحيى من المقهى تاركين ماجد قبالة مروان الذي ينظر له باشمئزاز قابله ماجد ببرود.

* * * *

سطعت شمس السادس من أغسطس أخيرًا، وخرج أدهم في ذلك الصباح يتجول بعض الوقت في الطريق حيث يشم بعض الهواء بعيدًا عن صهد المنزل، وتذكَّر سؤال أمجد المباغت له أمس بعد عودته من المقهى وجلوسه معه وأخيه:

- هل تزوجت يا عم أدهم؟

تذكر أدهم ها هنا ماضيًا جاهد في نسيانه أشد الجهد، فتذكر حبيبته نسمة، وأنه ككمال لم يظفر بها، ولكنه أقنع كمالًا بالمضي في حياته بعد ضياع نجاة من يديه، ولم يجد من يأخذ بيده ليدفعه في الحياة دفعًا، فيمضي ناسيًا نسمة وذلك الماضي، فظل في غيابة جبهًا وقتًا طويلًا، وظن أن الحال ستتغير يومًا، ويتزوج نسمة، ولكنه لم يدرك أن العمر يمر، والعجلات تدور، والمبنى ترتفع طوابقه ارتفاعًا، وإذا به يسمع أن نسمة الغائبة أخبارها قد تزوجت، وهنا شعر بأن الحياة تُخرج له لسانها من فيها ساخرة، ومرَّت مدة، وإذا به قد تعدى الثلاثين فقابل سامية معلمة الفرنسية في القرية الشهيرة، والتي أغرمت به بعد تعرفها على شخصه النبيل حينما كانت تدرِّس ليحيى الصغير، وأعجب بدوره بشخصها، وتعجب أنها قد وصلت للثلاثين دون زواج، وسألها عن السبب، فأجابت:

- لم أجد من يناسبني بعد..

كانت -كما لا زالت تحضر خياله- شقراء ذات شعر أصفر قصير ونظارة ذات كعب أزرق اللون، وتذكَّر عندما همَّت به حبًا، وهم بها هو الآخر عشقًا، وكانت خطبتهما حديث القرية لأيام، ولعلَّ نظرات الحسد من عازبات القرية قد اتخذت مسارها، فرقدت سامية لأيام في مرض صعب، وذات يوم بينما كان أدهم في عمله بالمقاولات الذي اشتغل بها مدة حتى تلك اللحظة إذ جاءه اتصال من عائلة سامية يقول:

- البقاء لله، لقد وافت سامية المنية..

فانصعق قلبه، وانخطف؛ لسماعه الخبر الأشد إيلامًا، والبلاء الأوقع أثرًا، وقرر من حينها عدم الارتباط، وأن يوقف قلبه عن الحب حينًا حتى تعدى الخامسة والأربعين.

وانتهى من خيالات الماضي عندما رجع من تجواله أمام المقهى، ورأى مروان قرب الباب يكنُس بالمقشة الأرض ويخرج التراب نحو الشارع، فلاحظه مروان، وابتسم، فقال له أدهم ببسمة مشرقة:

- صباحك جميل يا مروان.

- صباحك أجمل يا عم أدهم يا جميل.

وإذا بدراجة نارية تقدم من بعيد بسرعة نحو أدهم الواقف في الشارع، فتضربه في ساعده عندما كان يحاول تفاديها، وصرخ مروان:

- احذر.

فسقط أدهم أرضًا، وأكمل سائق الدراجة مسيره ولم يظهر وجهه من خوذته السوداء، وجرى مروان نحو أدهم الذي أخذ يتأوَّه متألمًا، فأوقفه على قدميه، وسأله:

- أحدث لك شيء؟

فقال أدهم بتوجُّع:

- ذراعي..

- سآخذك داخل القهوة؛ لأضع الثلج على ساعدك.

وظهر ماجد هو الآخر يجري بسرعة نحوهما، وقال:

- ما هذا الذي حدث؟ سائق بالتأكيد يرصدك.

فانتبه أدهم لكلامه، ولكن ألم ساعده غطَّى على رأسه التفكير، فأدخله مروان وماجد كلاهما القهوة في ظل آهاته. أجلساه أمام البار، وهو يمسك بذراعه المتألمة، وجلس ماجد بجانبه يفحصها ليجدها محمرة متورمة، وهرع مروان نحو الثلاجة، فجاء بكيس مليء بقطع الثلج، وأعطاه لأدهم ليضعه الأخير على ساعده المحمر بينما قال ماجد:

- حصل خير.

فوجد أدهم يقول:

- أو شر، الله أعلم!

فقال مروان:

- لا بأس عليك لا تقل هذا، ها أنت بخير لم يُصبك سوء.

وفكر أدهم فيما حدث له بينما الثلج يهدئ من روع النار في ساعده، فاستعاد كلام يوسف الشوربجي عندما هدده البارحة: (احذر لنفسك الأيام المقبلة يا أدهم) زفر أدهم بعد أن انتشل نفسه من تذكُّر ذلك التهديد، وأخذت رأسه تضرب الخيالات في ما قد يدبره يوسف لأجل الحصول على المفكرة، فقال لنفسه:

- ربنا يستر، ولتجعل العواقب سليمة يا رب.

بينما استأذن ماجد بالذِّهاب ركن له وهو يُلوِّح بهاتفه حيث جاءته مكالمة، وكذلك فعل مروان خلف البار، فتعجب أدهم منهما أشد العجب، وقال لهما مقطِّبًا حاجبيه:

- كما تشاءان أنا بخير وحدي..

* * * *

كان يوسف الشوربجي في مكتبه بمنزله في ذلك الوقت، فأمسك بهاتفه الجوال، واتصل بشخص قد اسماه في سجل المكالمات بـ (أبو العينين)، وقال له:

- ها قد نفذت لك ما طلبت، جعلتك تقترب بما فيه الكفاية من أدهم الجميل، ليتك تنفذ ما طلبته منك في أقرب وقت وتجلب لي المفكرة منه، أرجو السرعة يا أبا العينين، وتذكر أن الوقت في لعبتنا هذه من ذهب.. إلى اللقاء..

ومن الجانب الآخر داخل المقهى جاءه قول أبي العينين:

- حسنًا إلى اللقاء.

فمن هو (أبو العينين) هذا؟!

* * * *

كان أدهم يجلس على إحدى الطنافس مساء ذلك اليوم يحرِّك ذراعه علَّ الدماء تمشي بها وتستكين من الألم، فأتاه أخوه يحيى، وجلس بجانبه حزينا، وقال له:

- وماذا بعد يا أدهم؟ إلى ما تصل في ذلك الموضوع؟ طالما تلك المفكرة هنا ستجلب لنا المشاكل..

فقال أدهم بعد أن زفر زفرة حنق:

- أشعر أن ما حدث هو مجرد إنذار.

فسأله يحيى بريبة:

- وماذا ستفعل؟

- لا أدري.

- لِمَ لا تعطيها له؟
- أأنت مجنون يا يحيى؟ أعطيها ليوسف وأُضيِّع ميراث الولدين؟
- لا نعرف أساسًا ما هو ميراث الولدين! أظن الأمر مجرد وهم.

زفر أدهم مرة أخرى ثم قال:

- سنصل للحقيقة قريبًا.

ثم سأله:

- متى تذهب للجامعة؟

فرد يحيى متنهدًا:

- غداً صباحًا أرجع لسكني الجامعي.
- حسنًا لا تشغل بالك بالأمور الجارية، قُم لتنم..
- كنت أود أن أبقى معك لنحل المشكلة معا، ولكن للأسف الامتحانات خئونة.
- لا تقلق عليَّ وركز في امتحاناتك.
- حسنًا، كان الله في عونك.

ثم وقف، وقال:

- تصبح على خير.

فرد أدهم مبتسمًا:

- وأنت من أهله.

ودلف يحيى لغرفته مغلقًا الباب خلفه، وأدهم يتابعه بنظراته، وبعدها أشاح نظره نحو تلك الحقيبة الموضوعة على إحدى الطنافس المواجهة له مركزًا النظر عليها.

* * * *

حلَّت شمس السابع من أغسطس إلى الدنيا بموكبها، فازينت واكتست قريتنا بشعاعها الذهبي. استيقظ يحيى من صباحه، فاغتسل ثم هندم نفسه، وأخذ حقيبته من الصالة، ورحل في الحافلة التي مرت من أمامه متجهة لشبرا الخيمة، واستيقظ أدهم كذلك ليودِّعه، ويعطيه من النقود ما ينفقه في غيابه، وجلس في الصالة بعد تأدية صلاة الصبح يمسك بكسرة خبز قد غمسها بالجبن يتبلَّغ بها بينما كان أمجد ومعاذ نائمين في الغرفة. وظلَّ يفكر في تلك المفكرة التي تسكن درج مكتبه في غرفته، وعما ستسفر له الأيام من مخاطر محتملة من يوسف الشوربجي، وبينما هو يفكر إذ رن جرس الباب، ففتحه ليجد مروانًا بالخارج يقول مبتسمًا:

- صباح الخير يا عم أدهم.

فرد أدهم التحية متعجبًا:

- صباح النور يا أخ مروان.

- فكَّرتُ أن أمُرَّ عليك؛ لأطمئن على يدك المصابة منذ البارحة.

رحَّب به أدهم مشيرًا له بالدخول:

- تفضَّل يا مروان.

فدخل مروان البيت، وأغلق أدهم الباب بعد أن تفقَّد أن لا أحدًا بالخارج، وأشار أدهم له بالجلوس على إحدى الطنافس بالصالة فجلس على إحداهن سائلًا:

- ما أخبار ساعدك؟

فرد أدهم بأريحية:

- الحمد لله أصبحت بخير.
- لقد رأيتُ أخاك صباحًا يستقل الحافلة.
- أجل، فهو راجع لكليته بقنا ليحضر الامتحان، ثم يرجع قريبًا.
- كان الله في عونه، والنجاح من نصيبه.

أخذ مروان ينظر لأرجاء البيت بتعجب واستغراب، فلاحظه أدهم، وسأله:

- مالك تنظر للبيت هكذا؟

بتعجب قال مروان:

- بيتك بسيط.
- وماذا كنت تتوقع؟ بيت فخم لثري!

تحرَّج مروان بعض الشيء، وقال:

- لم أتوقع الأفخم.
- نسيت أن أكرمك كرم الضيافة، ماذا تود أن تشرب؟

فقال مروان:

- شايًا بملعقتي سُكَّر.
- حسنًا، ثوان وأرجع لك.
- خذ راحتك.

وذهب أدهم نحو المطبخ ليحضِّر الشاي، وفور غيابه وسماع مروان لصوت البراد يوضع على الموقد اطمأن أن أدهم منشغل بالشاي، فقام من مجلسه سريع الخطى خفيف الحركة نحو غرفة أدهم المفتوح بابها، وجد مكتبه أمام النافذة مباشرة، ففتَّش فيما على المكتب من أوراق ودفاتر، وفتح

الأدراج حتى وجد أمامه المفكرة، فتحها، فوجد مكتوبًا في صفحتها الأولى: (مفكرة كمال الشوربجي)، ونظر نحو النافذة، فوجد أن أحدًا ما بمنظار يرقبه من البيت المقابل للضفَّة الأخرى على الشارع، وسمع صوت أدهم قادمًا، ولا زالت المفكرة في الدرج لم يُخرجها حيث علقت فيه، فتركها بسرعة، وخرج عائدًا لمكان جلوسه في سرعة وخفة لا يستطيع عليها سوى لصٍ متمرس، وجاء أدهم بصينية فوقها كوبان، فوضعها أمام مروان، وجلس بجانبه، وأعطاه كوبًا قائلًا بابتسامة:

- تفضل.

فأخذ مروان الكوب مبتسمًا ثم قال:

- شكرًا جزيلًا.

* * * *

كان مروان واقفًا في المقهى وسط رواده مساءً، فقام بتغيير ورقة التقويم اليوميي حيث نسي تغييرها في الصباح، وظهر تاريخ اليوم الثامن من أغسطس جليًا للناس ممن استغربوا عدم تغييره، وجلس بعدها على كرسي من كراسي البار، وأخرج سيجارة يدخنها في تؤودة وينفث دخانها الفقير من خيشومه وسط دخنة الشيشة، وسمع صوت هاتفه يُنبِّئه بوصول رسالة، فأخرجه من جيبه، ونظر فيه، فوجد رسالة مكتوب بها: (الوقت من ذهب، وقد ذهب.)

كان أدهم يجلس في الصالة يُمسك بريموت التلفاز يقلِّب قنواته دون اكتراث أن يجد شيئًا صالحًا للمشاهدة وسط القنوات الفضائية، فقد تعوَّد البلاهة التي يعرضونها حتى سَئِمَ منها، فلم يعد يودُّ أن يرى منهم

شيئًا، وأن التلفاز عالم للحمقى فقط. جاءه أمجد يصحب معاذًا، وقال له:

- مساء الخير يا عم أدهم.
- مساؤكم سعيد يا شباب.
- هل لنا أن نشاركك الجلوس؟ فلقد سئمنا وحدتنا في الغرفة.
- بالطبع يا أبناء الغالي، تفضلا، فقد تكونان سلواي في ظل غياب يحيى.

فجلس الاثنان بقربه على الطنافس، وقام بعدها معاذ قائلًا:

- سأحضِّرُ لنا الشاي.
- حسنًا يا بني.

وذهب معاذ نحو المطبخ بينما أخذ أمجد يحكي لأدهم عن حياته مع أبيه، وكيف كان أبوه يحب أن يأخذه معه في أسفاره وتجواله ليشهد ما يشهد،.وكانت غرفة أدهم مغلقة ومظلمة، ولم يدرِ أدهم أن عملية تلصُصٍ تحدث له في ذلك الآن!

* * * *

الغرفة مظلمة تمامًا حالكة الظلمة، فتحت النافذة على مصراعيها، ودخلَ ذلك المتسلِّق البارع في ظلمة الليل من على سطح المقهى الغرفة، وكان يتَّشحُ كله بالسواد حتى لا يظهر للعيان، وخاصة ذلك الذي ينظر للغرفة بمنظار من البيت المقابل، وأخرجَ مصباح هاتفه يُشعله، ليبدو وجهه واضحًا فيه، ويستطيع رؤية أغراض الغرفة كرؤيتها في أشعة الشمس.

اتجه مروان نحو المكتب، ففتح درجه المَعني ليأخذ المفكرة، ولكنه لم يجدها، لقد اختفت.

أخذ يبحث في كل مكان بالغرفة جيدًا، فلم يجد شيئًا. لم تكن هناك أية مفكرات. نظر نحو النافذة ليرى الناظر له بالمنظار يضحك. يراه رأي العين وضحكته الصفراء الساخرة. أحسَّ أن الزمن يلطمه لطمة قوية.

وخارج الغرفة كان معاذ راجعًا بصينية أقداح الشاي، فسمع صوت الدرج ينفتح داخلها، فقال لأدهم:

- يا عم أدهم، هناك صوت آتٍ من الغرفة.

تعجب أدهم، وأحس بشيء غريب يحدث، فوقف بهدوء وخلفه أمجد، واتجه نحو الغرفة، ففتح بابها ببطء، فلم يجد أحدًا، فرفع القابس بيده، فأنار المصباح الغرفة، فوجد الغرفة خالية من أي أحد، والنافذة مفتوحة! وهو يذكر أنه قد أغلقها قبل خروجه من الغرفة منذ قليل، فذهب نحوها، ونظر بالخارج في كل النواحي، فلم يجد شيئًا يُذكر أو يهم أو يُشعِرُ بالخطرِ، فأغلقها، وأنزل القابس، وأغلق الغرفة مجددًا، ورجع أدراجه ليجلس مع الصبيين مرة أخرى غير آبه بما يحدث من حوله.

* * * *

أنزل المنظار من فوق عينيه المصوبة نحو نافذة غرفة أدهم التي تكشف مكتبه له، ورجع لمكتبه في تلك الغرفة الطويلة العريضة، وجلس على الكرسي يمسك بقدح القهوة يرتشفها، وأمسك بالمفكرة الساكنة على مكتبه أمامه بابتسامة ظفر ترتسم على ثغره، فتح المفكرة ليجد أول

صفحة قد كُتب فيها: (مفكرة كمال الشوربجي)، وانقطعت أنوار المصابيح في الغرفة، فارتعب من الانقطاع، ووجد ضوء المصابيح خارج البيت ينير جزءًا من الغرفة، فوقف مصدومًا، ولاحظ وجود شبح داخل الغرفة بعيدًا عنه، فسأل بخوف:

- من هنا؟

فظهر مروان أمام عينيه مبتسمًا يقول:

- للأسف يا ماجد أنت جبان، أرسلك يوسف لمراقبتي ولا يعرف عنك الجبن.

فسأله ماجد بحذر:

- ماذا تريد؟ ألم تفشل في سرقتها أمس؟

اقترب منه مروان، وقال بحدة:

- مروان أبو العينين لا يفشل أبدًا.

أخذ المفكرة من يد ماجد المستكين الذي غمر جبينه العرق، وذهب بعدها نحو باب الغرفة قائلًا:

- لا تتصل بيوسف، سأحدِّثه أنا وأحاسبه على خطئه.

خرج من الغرفة، ومرت دقيقة ثم عادت المصابيح تعمل مرة أخرى، وماجد لا يزال مصدومًا من شكل مروان المُتَّشِح بالسواد المخيف.

* * * *

جلس مروان بالمقهى الخالي في منتصف الليل يرتشف كوب عصير الليمون المثلج بالشفاطة، ودخل يوسف الشوربجي عليه قهوته مبتسمًا، فأخرج مروان المفكرة ووضعها أمامه على المنضدة التي اتخذها

بمنتصف المقهى. تهللت أسارير يوسف حين رأى المفكرة أمامه، فصاح:

- أحسنت صنعًا يا أبا العينين.

فنظر له مروان بغضب وهو يبعد كوب العصير عنه طارقًا به المنضدة، وقال له:

- هذا آخر تعامل بيننا يا يوسف.

تعجب يوسف، وسأل بحذر:

- لماذا؟

- لأنك قد أجَّرت كلبًا خلفي كالظل يراقبني فاشل لقد كشفته منذ رأيته للمرة الأولى.

- خفتُ أن تفشل، ففكَّرت أن أجعله داعمًا لك.

- زين ما اخترت يا يوسف.

تنفس يوسف الصعداء ثم قال:

- لا يهم، المهم أن المفكرة الآن بين يداي.

ألقى مروان بالمفكرة ليوسف قائلًا:

- خذها ها هي..

فتلقفها يوسف بيديه الاثنين، والفرح سيجعل عينيه تهرب من مقلتيه، وفتح المفكرة، فوجد في صفحتها الأولى فعلًا: (مفكرة كمال الشوربجي)، وقلَّب الصفحات بعدها، فلم يجد شيئًا المفكرة خالية تماما كأنَّما هربت الكلمات منها! صاح بصدمة تَبِعَها الغضب:

- ما هذا؟

سأله مروان في رفق:

- ماذا تقصد؟

ألقى يوسف بالمفكرة أمامه على المنضدة قائلًا:

- إنها خالية تمامًا، صفحاتها بيضاء!

سأل مروان بعدم فهم:

- وماذا يجب أن تحوي بالضبط؟

رد يوسف بحنق:

- المفترض أنها تحوي لغزًا قد كتبه أخي يوصلني لرقم حساب بنكي.. ولكنها لا تحوي شيئًا.

ردد مروان بعجب:

- رقم حساب بنكي!

فقال يوسف بحدة وصرامة:

- أجل.. أين المفكرة يا مروان؟

- لا أدري، هذه ما وجدتها في الغرفة، ولقد بحثت في كامل الغرفة، لم يكن هناك سواها.

صرخ يوسف منفعلًا:

- ماذا تعني؟ الكنز ضاع!

- لا أدري ما تقول!

كاد يوسف ينفجر غيظًا وغضبًا، وأخذ يسأل في حدة:

- أين المفكرة؟

اتصل بماجد يسأله، فأجابه بأنها مع مروان قد أخذها منه، ومروان يخبره بعين اليقين أن لا مفكرة غير تلك قد وجدها في الغرفة.

ومن الخارج تسرب لسمعهما صوت الغناء العذب:

أما براوة براوة أما براوة.. دوار حبيبي طراوة آخر طراوة

هرعا كلاهما للخارج، فوجدا أدهم يجلس في الشرفة مع أمجد ومعاذ، وأدهم يغني شاديًا:

أما براوة براوة أما براوة.. دوار حبيبي طراوة أما براوة
قلة حبيبي ملانة عطشانة يانا.. أروح له ولّا أروّح أشرب حدانا
أروح له ولا أروَّح وبلاش شقاوة.. أما براوة براوة على الشقاوة
حبيبي لما لقاني مريت قباله.. شال طرف شالي وسقاني وطرف شاله
طرف لي عين يا عيني بس بهداوة.. أما براوة براوة على الهداوة
يا ناس لوموني لوموني ما ترحموني.. أحب لوم العوازل لما يلوموني
وأنا وحبيبي يا عيني حلوين حلاوة.. أما براوة براوة على الحلاوة

الصبيان يسمعانه بشغف وطرب نفس، ويوسف في الشارع أمام مروان الصامت الذي يرتشف الليمون يصرخ:

- مستحيل.. مستحيل.

لقد ضاع كنزك يا يوسف للأبد.

* * * *

وانتهت تلك الليلة الغريبة، وحلَّ صباح التاسع من أغسطس، والتينة الحمقاء قد اجتثها البستان لتهوي في النار تستعرُ. وفي منزل أدهم، كان

يقف أمامه يوسف بينما وقف أمجد ومعاذ خلفه يرقبان الحديث، فسأله يوسف:

- أين المفكرة يا أدهم؟

فرد أدهم بقوة:

- لا شأن لك.

- سأبلغ عنك الشرطة بجرم إضاعة ميراث الولدين.

فرد أمجد على عمه بحدة:

- لا شأن لك بنا يا عمي، وإن حوكم عم أدهم سنشهد لصالحه.

فقال يوسف بغيظ:

- ويل لكما! حسنًا، قابلاني يا ابنا كمال إن أعطاكما حقكما، سينصب عليكما وأنتما أبلهان لا تفقهان شيئًا سينال كل شيء دون أن تستفيدا بشيء.

وخرج يوسف من الباب ليصادف يحيى أمامه حاملًا حقيبته قد وصل حالًا من كليته، فنظر يوسف له شزرًا ثم رحل، ودخل يحيى يسأل:

- السلام عليكم، ما جاء بذلك الرجل هنا؟

فرد أدهم:

- وعليكم السلام، أغلق الباب خلفك.

فأغلق يحيى الباب، وسأل أمجد أدهمًا:

- يا عم أدهم، أيمكنني رؤية المفكرة؟

الحق أن الشك ساوره منذ كلام عمه يوسف بأن المفكرة قد ضاعت من أدهم أو شيء من ذاك القبيل، فقال أدهم مبتسمًا:

- ألا تثق فيَّ أم ماذا؟ (ثم ساخرًا) عيب عليك وأخيك بعد أن غنَّيت لكما البارحة طربًا.

فقال أمجد ببراءة:

- أود الاطمئنان فحسب.
- وهذا حقك.

ثم نظر ليحيى، وقال:

- يحيى ناولني حقيبتك.
- لماذا؟

فناوله إياها وهو حيران مما يحدث، وفتح أدهم الحقيبة، وفتح جيبها السحري، وأخرج منه المفكرة الصغيرة قائلًا:

- هذه هي المفكرة الأصلية التي تخص والدكما، كانت مع يحيى قد سافرت معه إلي جامعته.

فقال أمجد بعفوية:

- يا ابن الجنية!

ورجع عن قوله سريعًا، وقال:

- آسف لم أقصد.

فقال أدهم مبتسمًا:

- لا عليك.
- أسلَّمتَ مفكرة مزيفة لعمي؟

وهنا حكى أدهم مبتسمًا بظفر ما حدث في آخر ليلة له مع يحيى قبل رحيله حيث قال له يحيى:

- حسنًا، كان الله في عونك.

ثم وقف، وقال:

- تصبح على خير.

فرد أدهم مبتسمًا:

- وأنت من أهله.

ودلف يحيى لغرفته مغلقًا الباب خلفه، وأدهم يتابعه بنظراته، وبعدها أشاح نظره نحو تلك الحقيبة الموضوعة على إحدى الطنافس المواجهة له مركزًا النظر عليها.

قام من مجلسه، فدلف لغرفته، وأخذ المفكرة من درج مكتبه، ورجع للحقيبة ليضعها في جيبها السحري مخفيًا إياها جيدًا، ورجع فأخرج مفكرة أخرى تشبه الأصلية تماثلها كالتوأم، وفتح أول صفحاتها، وكتب مُقلِّدًا خط كمال: (مفكرة كمال الشوربجي)، ثم أغلقها واضعًا إياها في درج مكتبه.

أنهى أدهم حكيَ ما حدث، فقال يحيى مصدومًا:

- طوال الوقت من حينها والمفكرة معي؟ يا حلاوة! ولكننا لم نعرف بعد حل اللغز بها الذي تركه والدهما -رحمه الله-.

فقال أدهم:

- لقد حللته.

قالوا جميعًا في صوت واحد مندهشين:

- حقًا؟

- أجل، كنت أحتاج فقط من يوسف أن يخبرني بأنه رقم حساب بنكي حتى أتيقَّن من الحل..

نظر لأمجد ومعاذ، وتابع:

- في حديث أبيكما في المفكرة يخبرنا أن عمكما يوسف يعرف سر المفكرة وما يؤول إليه حل لغزها، وهو رقم حساب بنكي، وإذا علم أحد الأقارب رقم الحساب من حل اللغز يستطيع أن يذهب ويستلم التركة الموجودة بالحساب.. (إنها المرة الأخيرة لي على ما أظن بين صفحات تلك المفكرة، فبعد أن علم أخي يوسف عنها، وهو لا يهدأ عن التربص بها، فبعد أن أمسكت بذلك اللص الذي كلفه بسرقتها، أدركت أنه لا مناص من إبعادها عن المنزل).. هذا حديث والدكما من المفكرة، ولحل اللغز نسأل سؤالًا مهمًا، لماذا كتب في أيام محددة فقط مقطوعات أغنية نجاة الصغيرة، لقد ذكر أنه أحب فتاة الجامعة المدعوة نجاة والتي علَّمته لعبة تحويل الحروف إلى أرقام والعكس، فإذا نظرنا إلى الأيام التي كتب بها المقطوعات بترتيبها في الأغنية، سنجد الثاني من يناير، والثاني من أغسطس، والرابع من فبراير، والثالث من سبتمبر، فإن أخذنا من كل اسم شهر الحرف الذي يدل عليه رقم اليوم سنجد حروف (نون)، و(غين)، و(ألف)، و(تاء).. يجمعون لنا كلمة نغاة، وإن قلبناها بالإنجليزية ستكون NAGAT حيث قصدها باللغة الإنجليزية كما هو واضح..

فأخرج أدهم ورقة من جيبه أمامهم وقلما أزرق، وكتب على الورقة كلمة NAGAT.. تابع قائلًا:

- نقوم بعدها بتحويل كل حرف بالرقم الذي يوازيه في ترتيب الحروف الأبجدية سنجد أن الرقم هو (١٩-١-٧-١-١٤).. وهو رقم الحساب البنكي المراد..

كتب الرقم على الورقة أيضًا ثم قال:

- هذا هو رقم الحساب الذي يقبع فيه ميراثكما يا ولداي تستطيعان أن تتسلماه من الغد إن شئتما.

أعطاهما الورقة بيده والمفكرة، والثلاثة مصدومون مما قال من حل للُّغز، والدهشة تغمرهم غمر المحيط لأسماكه، فقال أمجد بفرح:

- غير معقول، أنت عبقري يا عم أدهم حقًا، لقد أدركت لمَ استعان والدي بك لنجدتي وأخي، أشكرك جزيلًا على خير ما صنعت لنا!

- الحمد لله، والدكما -رحمه الله- هو العبقري لأنه قد حافظ لكما على ميراثكما من السرقة بذكاءه، وأرجو أن تصبحا على نفس ذلك القدر من الذكاء..

باغته يحيى ها هنا سائلًا:

- ثوان ثوان، أدهم، كيف لك أن تعلم أنه رقم حساب بنكي، ولم يخبرك يوسف بذلك؟

فابتسم أدهم ليحيى ابتسامة ذات مغزى عميق خفي لا يعلمه سوى ثلاثة...

* * * *

كان مروان يكنُس القهوة بالمقشَّة ساعة العصر، وقد كانت القهوة خالية كعادتها في وقت الأصيل، فالناس مشغولون بالنهار بأعمالهم، فيجيئون

مساءً بعد العشاء فيملأونها، ودخل أدهم القهوة، فتنبه له مروان، فنظر له بريبة ثم ترك المقشة جانبًا ساندًا عصاها على منضدة زرقاء اللون، ونظر لأدهم الذي نظر له طويلًا، وبعدها ضحك أدهم ملء شدقيه، وكذلك فعل مروان، ومدَّ أدهم يده له، فصافحه مروان بحرارة، وقال له أدهم:

- براوة عليك يا مروان.

وتذكَّر مروان ما حدث بينه وبين أدهم عندما ذهب لمنزله ليفتش عن المفكرة، ويسرقها بينما أدهم يعد الشاي، وخرج مسرعا من غرفته عائدًا لمكان جلوسه في سرعة وخفة لا يستطيع عليها سوى لص متمرس، وجاء أدهم بصينية فوقها كوبان، فوضعها أمام مروان، وجلس بجانبه، وأعطاه كوبًا قائلًا بابتسامة:

- تفضل.

فأخذ مروان الكوب مبتسمًا ثم قال:

- شكرًا جزيلًا.

فباغته أدهم وهو يرتشف الشاي:

- أخبرني أوجدت المفكرة أم لا؟

فصُدم مروان من سؤاله، فلا بد أن رآه أدهم وهو يحاول سرقتها، ولكنه حاول التظاهر بالبلاهة قائلًا:

- أي مفكرة؟

فقال له أدهم:

- عادة فيَّ حلوة أنني لا أحب أن أقف بجانب برَّاد الشاي حتى يغلي، أترك المياه تغلي وأخرج لأرى ضيفي كيف حاله.

فقال مروان بدهشة:

- لقد رأيتني؟

فقال أدهم وهو يرشف بعض الشاي من الكوب:

- أجل، أريدك أن تفهم شيئًا مهمًا، يوسف الذي تعمل لصالحه هذا لص خسيس يريد سرقة ميراث ابني أخيه، ولا أظن أن روبن هود ينصر هكذا رجل، أليس كذلك؟ ألا يأخذ من الأغنياء ليريح قلوب الفقراء؟

أومأ مروان مصدومًا في اعتناقه بأن يوسف شخص خيِّر قد كذب عليه، وأوهمه وهمًا مضِلًا.

قام أدهم، وفتح باب الغرفة التي ينام فيها الولدان، وقال لمروان:

- أتقبل السرقة لهذين المسكينين؟

فهز مروان رأسه نفيًا، وقال:

- إذا كان ما تقوله صحيحًا، فلقد كذب عليَّ يوسف!

- من حديثك في المقهى ظننتك تتبعه، ولكنك لص شريف قَّلما يوجد مثله، ولذلك قررت إخبارك.

- وماذا نفعل الآن تجاهه؟ أأرفض طلبه؟

- كلا، ستأخذ له المفكرة، ولكن بطريقة صعبة بعض الشيء أمام عيني ماجد الذي يرقبك من المنزل المقابل بمنظاره.

- أجل لقد لاحظته.

- أود منك أن تُوقِع يوسف في الكلام، وأن يبوح بسر المفكرة، فقد حاول سرقتها من كمال من قبل، فلا شك أنه يعرف ما تحويه، فأظن أن كمال قد ائتمنه على ذلك السر قبلًا، ولكنه لم يدرك أن تجيئه الطعنة منه، حتى أنه خاف من أن أخطئ، فلغَّزها لي، وتركني أحلُّ اللغز الصعب هذا.
- كيف أسرق المفكرة إذن؟
- الموجودة بالداخل مزيفة، فلتتسلل ليلًا أمام عيني ماجد، وتسرقها.

اندهش مروان، وراقت له الفكرة، فأومأ بابتسامة علت شفاهه.

وهكذا باح يوسف بالسر عندما سأله مروان بالمقهى بعد أن أعطاه المفكرة المزيفة:

- وماذا يجب أن تحوي بالضبط؟

رد يوسف بحنق:

- المفترض أنها تحوي لغزًا قد كتبه أخي يوصلني لرقم حساب بنكي، ولكنها لا تحوي شيئًا!

انتشله أدهم من تذكره لما حدث، وسأله:

- وماذا عن ماجد؟
- لقد انتهت مهمته، وغادر البيت المقابل لبيتك، ورحل إلى بلده بالمنوفية.

جلس أدهم عند البار، ودلف مروان خلفه، وسأله:

- تحتسي شايًا؟

- ليتك تصب لي كوبًا خفيفًا على الدم، وتشغِّل التسجيل ليطربنا بما لذ من الأغاني.
- من عيني.

وأدار مروان مشغِّل الموسيقى، فصدر صوت نجاة الصغيرة يطرب الأذن، وأدهم يقول فرحًا:

- أصبحت تفهم في الأغاني والموسيقى.

وتابع مروان مبتسمًا عمل الشاي، وصوت نجاة يدوي:

أما براوة براوة أما براوة.. دوار حبيبي طراوة أما براوة
قلة حبيبي ملانة عطشانة يانا.. أروح له ولّا أروَّح أشرب حدانا
حبيبي لما لقاني مريت قباله.. شال طرف شالي وسقاني وطرف شاله
طرف لي عين يا عيني بس بهداوة.. أما براوة براوة على الهداوة

* * * *

عاد أدهم لمنزله الذي خلا من الولدين وبقي يحيى سلوانه الوحيد فيه، وقال يحيى متنفسًا الصعداء:

- أخيرًا انتهينا من مشكلة المفكرة!
- الحمد لله.
- لقد كنت أنت نجاتهم حقًا من حتفهم على يد يوسف الشرير.
- كمال كان أخًا لي في الماضي، وأولاده كأولادي رغم أنني لم أُرزق بابن.
- غفر الله لك وجعل الجنة مثواك وأمثالك يا أخي، تستطيع الآن أن تستريح..

وألقى أدهم بنفسه على الطنافس يستلقي بجسده عليها، ويدير بالريموت التلفاز، ويقلِّب في القنوات بلا طائل كما اعتاد.

* * * *

لله دُرُّك يا كمال يا شوربجي، ولَّت أيامك في الدنيا، الأنس منك فولديك يحول الوحدة سعادة حقًا، قلَّب الصور فتوقف عند صورة بعينها صورة هدى فؤاد بنت عمته نجوى وهي تقف بجانبه في غرفته بالبيت القديم يوم نجح في الثانوية العامة وقلَّب في الصندوق أمامه عن كتيب ذو جلد بُنّي قديم أخرجه وفتحه يعيد قراءة محتواه وفتح صفحته الأولى ليجد مكتوبًا أعلاها (مذكراتي تُسلَّم لأدهم الجميل بعد مماتي.)

الصورة الخامسة

(الرحمن، علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان، الشمس والقمر بحسبان)... دائمًا ما أحببتُ سماع سورة الرحمن بصوت المقرئ أحمد العجمي، كنت تحبه أيضًا يا أدهم، لقد تعلمتُ سماع القرآن منك على الأغلب، كنتُ أراك متدينًا تحب ربك ولا تريد أن تقع في معصية، أرى فيك الروح قوية الصلة بخالقها وتستشعر بكل أمر من أمور الدنيا، ومع ذلك لم تستشعر حبي لك يا ابن خالي، لم تشعر بأمَة الرب الفقيرة إليه هدى فؤاد عبد السلام بنت عمتك نجوى -رحمها الله-. لمَ أكتب لكَ ذلك الحديث؟ لا أدري، ربما هي فضفضة المحتضر، سأحكي لك ما كتمته في الذاكرة ودفنته في القلب سنينًا حتى شِختُ وغلبني المرض...

أذكرك في المدرسة الابتدائية، وكنت تسبقني بعامين، كنت وديعًا طيِّبًا غير الأشقياء الآخرين، رأيت فيك نفسي منذ الصغر، ولم أكن أدري أن شعور الحب يتولد فيّ. فيما بعد بلغت مبلغ النساء وعرفت أنه الحب. ورغم حبي لك يا أدهم لم أقو بالتلميح لك حتى وقت كتابة هذه السطور، وجدتك في المدرسة تصاحب شذى حمدان، وشذى غيري تمامًا، جريئة، قوية، ظننت

أنك شغوف بها، ومرت الأعوام وإذا بي أسمع أنها قد تزوجت وأنجبت أيضًا. ليس لك معها نصيب فيما يبدو، واشتد تطلُّعي إليك ها هنا، وخاصة أن أمك عائشة كانت معجبة بي، وصرحت لي أمي يومًا أن أمك تنظرني زوجة لك مستقبلًا، ومضى العام تلو العام وأنا آمل انتصاري. حتى جاء ذلك اليوم الذي هدم كل شيء، فقد أخذت بمعولك يا أدهم وكسرت قلبي، أتذكر يوم نجحتَ في ثانويتك العامة وأصبحت مثلًا لي أحتذي به في المثابرة والاجتهاد ومشاركتي لك فرحتك يومها حبًا فيك، بعدها بعام كنت في الثانوية مثلك يا أدهم، حاولت حذو حذوك كي أصير معك في الكلية أمام عينيك، ولقد شهد المعلمون بشطارتي وذكائي في الرياضيات والفيزياء والكيمياء، وكيف لا وكنت أستعين بك في بعض المواقف التي استعصى عليَّ فهمها ولم تضن عليَّ بعلمك، ليتني ما كنت بنت عمتك كي تلتفت إليَّ كما تلفت لأي فتاة أخرى، لاحظت أنك تخاطبني دائمًا كأختك، فكيف التوليف بين قلبينا وقد غلَّقت قلبك عني؟ عدت ذات يوم من دروسي، فوجدت أمك عائشة عندنا، اليوم هو الأربعاء حيث تجيء تُجالس أمي نجوى جلستها المفضلة كل أسبوع، لأول مرة تطلب مني أمي ألا أشاركهما الجلسة، ما الخطب يا ترى؟! ابتعدت عن الصالة حيث تجلسان، ولكني تركتُ أذني تمتد عن بعد أتنصَّتُ للحديث، سمعت العمة عائشة تقول:

- الولد أدهم غلَّبني وغلَّب أبيه!
- ما له كفى للشر؟
- وقع في حب فتاة يريد زواجها.

- وما الضير في ذلك يا أختي؟ هو من خيرة الشباب لأي فتاة فزوجوه.
- المشكلة في الفتاة يا نجوى تُدعى نسمة عاطف الحكيم.

شهقت أمي حينما سمعت الاسم، وأردفت:

- خبره أسود! ما لَمَّه على بنت الكلاب؟
- التعليم وسنينه، يُحبها منذ الثانوية وقد دخلت معه الكلية، أمام عينيه كل يوم، وقلبه يحرك مشاعره وشيطانه يركبه.
- وماذا قال له محمود أخي؟
- حكى له قصة الإرث، وأورثه المشكلة، وأفهمه استحالة الاقتران بها وعائلتها.
- خيرًا فعل، وأظن أن أدهم سيتعافى منها عما قريب، فهو فتى ناضج العقل وليس طفلًا يبكي لضياع لعبته.
- هذا ما آمله يا نجوى.

لك أن تتخيل يا أدهم شعوري المحتضر وأعصابي المُدغدغة حينها بعد سماعي محادثتهما، أغلقت الغرفة على نفسي أبكي حتى الصباح، فقد ضعت مني، وللأبد، وجراء ذلك قل مستواي في الثانوية العامة، وشدد أبي وأمي عليَّ، ولكني لم أقو على احتمال السهم الذي أصبتني به، وفهمت أمي ما في نفسي، فقالت لي:

- يا ابنتي كل شيء قسمة ونصيب، ولا تجزعي من القدر، وليكن أملك في الله وتدابيره كبيرًا.. سيجبر بخاطرك عما قريب.

هدأت بعض الشيء بعدها وقد سلمت للواقع المخيب للأمل، وانتهت الثانوية، ولم أحصل على ما أريد والذي ما عدت أريده، ودخلت كلية الآداب، فكما تعرف عني حبي للأدب والشعر والقصة، وفي كل يوم أراك فيه يزداد بحر حزني قطرة سوداء، لم أُفضفض ولو لمرة عما بي، لم أجد قلبًا يحتويني، ولم أدري أن بحر الحزن ذاك سيستحيل يوما لبحر من القسوة تخرج كنوع من تفريغ الكبت..

تقدّم لخطبتي في سنتي الأولى بالكلية عبده عراقي، فقبلت به فورًا، أردت أن أغيظك يا أدهم حينها، ستصبح أسرة لي بينما أنت تضرب أصقاع الحزن على حبيبتك التي لن تستطيع الظفر بها. هذا ما ورد بخلدي حينها، وكنت أنت السبب فيه. عشت مع عبده حياة هادئة ببيت أبي حيث لم ترض أمي أن أبتعد عنها، أقمنا في غرفة وحدنا شاركنا فيها أطفالنا فيما بعد، وتزوج أخي عمر بهند طه بنت قرية بهادة، ومات أبواي فكنت أنا كبيرة المنزل من بعد أمي، ولم أكن أحب عمل أي شيء في المنزل، فوضعت الحمل كله على هند الحبلى، وذات يوم وبّختها بقسوة أمام أخيها لأنها لا تمتثل لأوامري، فلطمها عمر تأديبًا لها كي تطيعني دون كلل، وحمّلتها جوال بصل متلذذة برؤيتها تئن وجعًا، وناري تبرد في كل أنّة، ووقعت من على السلم وهي تحمل الجوال، وسقط حملها وخفت بطنها مما تحمل، فحزن أخي، وحمّلني السبب. لم أحتمل تقريعه، فطردته من البيت وزوجه يضربان الأرض تيها حتى استقرا ببهادة في جنح الليل.

لم يتحمل عبده زوجي ما رأى مني، وتلاحمنا سويًا بالكلام أمام أعين الأطفال، وعبده كان طيّعًا غلبانًا، ولكنه لم يتوقع مني كل هذا الشر تجاه هند، وحين اشتد الصراخ بيننا ولم ير مني تقبلًا لكلامه طلقني ثلاثًا، وهجر بيتنا.

أذكرك حينها يا أدهم جيدًا عندما كنت تعمل عدة شغلانات لتحصل رزقًا واسعًا كي تبني به عمارتك فيما بعد، وأذكرك عندما كنت رحيما تودُّني، وسارعت بالصلح بيني وبين عبده طليقي، ورضي عبده بأن يصالحني كي ينعم أطفالنا بالعيش معنا لا الانفصال بيننا، وقال حينها متبرمًا:

- كيف نرجع لبعضنا زوجين وقد طلقتها ثلاثًا؟

حينها كانت المعضلة! وأردف عبده:

- أنأتي بمحلل يتزوجها ليلة كما الأفلام؟

فقلت يا أدهم حينها:

- هذا ليس من شرع الله، الزواج لا يمكن أن يكون بمدة محددة، للأسف لن يمكنكما الرجوع لبعضكما مرة أخرى.

فقال عبده:

- سنفعلها والله غفور رحيم.

لم ترتض ما قاله يا أدهم، ولكنه نفذ ما يريد، وجاء بصديقه شريف كرم ليكون المحلل، والحق يا أدهم أنني لم أصف تجاه عبده بعد، وأردت أن أُكبّده عناء غير مبرر، القسوة تود أن تتحرر مني. تزوجت شريف ذات ليلة، وفي الصباح جاء عبده يوده تطليقي، فقلت له:

- كلا لن يطلقني.. سأعيش معه زوجة مدى الحياة..

طار لبه، ومشى يتخبط في أركان العالم لا يحسن صنعة، واندثر بعد مدة تحت التراب من الحزن والهم.

وهكذا عشتُ مع زوجي شريف حتى توفاه الله مع أول حفيد من ابني علي أحصل عليه، وكنت في عمر الخامسة والأربعين حينها، وقد وهنت عظامي، وبليت جراء النار التي تسكن جوفي، وبدأت أضايق زوجات أولادي كما كنت مع هند زوجة أخي حتى زهقن وطلبن من أبنائي هجري، فإذا بهم فعلًا يهجرون البيت طوعًا لزوجاتهم المقاطيع، بنى كل واحد منهم بيتًا ينأى بنفسه وزوجه وأولاده فيه بعيدًا عن وجع الدماغ الذي أورّثه، ولقد أحسست بدنو الأجل، فأردت أن أترك الشيطان بين أبنائي يكمل عليهم. وجمعتهم كلهم ذات يوم، فقلت لابنتي الوحيدة:

- لك وحدك الطابق الأول من البيت بعد موتي.

والتفتُّ أقول إخوتها الخمسة:

- ستنفذون الوصية دون كلام.

لم ينبسوا ببنت شفة، أعلم ما سيصير بينهم مستقبلًا من تفرقة، ولم أدر لمَ مضيت في دقِّ أول مسمار في التابوت! السبب في ذلك كله كتلة الغيظ والغضب المتولدة في قلبي منذ فقدتك يا أدهم.

مرضتُ في أواخر أيامي كما تعلم، ولم أقو على الاعتناء بنفسي، وابنتي انشغلت ببعلها وعيالها، وأولادي لم يرثوا عني سوى قسوتي، فلم يُبدوا لي

حنانًا، اللهم عدا عاصم يسأل عني كل أسبوع وزوجه تأتي لي بالطعام كل يومين، أهملوني حتى كدت أموت، فحملني عاصم وجلبني عندك قائلًا:

- أمي تحتاج رعاية لا يمكنني توفيرها.

حينها قلتَ له:

- ويل لكم، وقسوة قلوبكم على أمكم مهما فعلت!

ورحل الابن لا يؤثر فيه الكلام. أقمتُ عندك هذه الأيام تعتني بي خير عناية من أخ لأخته، وأنا الذي وددتُ جوارك مدى الحياة أخيرًا أصبحت معك قبل نهايتي، كنتَ أحنَّ عليَّ من أبنائي يا أدهم.

أيامي انتهت وما بقي منها أدوِّنُ فيها ما تقرأه الآن، وأشعر أن نحبي سيُقضى بعد يوم أو بعض يوم، وغرضي من المكتوب الفضفضة بما اعتمله قلبي لسنوات..

ادعُ لي يا أدهم ربك الذي تقربه أكثر مني، ادعوه أن يغفر لي آثامي ويُنزل عليَّ شآبيب رحمته.

ادعوه.

بنت عمتك هدى فؤاد عبد السلام.

* * * *

انحدرت دمعة من عيني أدهم بعد أن أنهى قراءة مفكرة هدى، لم يحبها سوى كأخته طول حياته، ولو علم بما يعتمله قلبها لتزوجها كي يفثأ لوعتها، ولكنه لم يدر، فنكأ الجُرح. يذكر ما حلَّ بأبنائها من خصام عند احتساب الميراث، ومطالبة الأخت بالطابق الأول كاملًا وهو ما يُخالف الشرع، ولكن الشيخ الذي جاء به أدهم ليحكم بينهم قد أبطل الوصية

حيث لا يحق لهدى أن توصي لأحد بأكثر من ثلث التركة، وقُسِّم الميراث بالشرع والقانون، وأخذ كل نصيبه راضيًا كان أو غير راضٍ، وطفقوا يتفرقون في دروب شتى حتى نسوا أدهم وتناسوا بعضهم البعض، لم تبثْ هدى فيهم الرحمة والحب، فنبذ كل منهم الآخر، وتفرق شمل الإخوة إلى نهاية حيواتهم. اختفوا جميعًا من حياة أدهم ولم يسمع منهم مرة أخرى. وقلَّب الصفحة ليُغلق الألبوم بعدها. نظر حوله، فوجد كوب الحلبة قد برد ولم ينهِه، والمؤذن يؤذن للفجر، قام فتوضأ ثم صلى ركعتيه، ووجد أخاه يحيى قد قام هو الآخر، فلملم حاجياته في حقيبة كتفه، وهندم نفسه للرحيل لقنا. عانقه أدهم بحرارة، وقال له:

- اعتن بنفسك يا يحيى.

- حاضر يا أخي.

ورحل يحيى وأدهم يرمقه من شباك الغرفة وهو يركب التوكتوك، وابتعد به التوكتوك حتى غاب عن عين أدهم التي دمعت لفراق أخيه حتى وإن قصر.

الصورة الأخيرة

جاءت سنية رأفت لأدهم في اليوم الذي رحل فيه يحيى لكليته قالت له:

- اعذر ابني لكسر المصباح يا عم أدهم فهو ما زال طفلًا شقيًا.
- لا عليكِ يا سنية قد اعتدت شقاوته، وقد بدّلت المصباح المكسور صباح اليوم.
- تسلم والله، أستسمحك في طلب.
- تفضلي.
- الشقة المجاورة لشقتك فارغة، أليس كذلك؟
- بلى.
- صديقة لي من القرية تود السكن، ولم تعثر على شقة بعد.
- فلتتفضل إذن هنا، الشقة تحت أمرها، وسأعطيكِ المفتاح.

أعطاها مفتاح الشقة ثم رحلت.

وبعد يومين، خرج صباحًا ليمشي على الطريق العمومي كما اعتاد كل صباح، وهو ينتظر رجوع يحيى من كليته كي يؤنسه بدلًا من وحدته، ذهب للمطعم يجلب إفطاره من الفول والطعمية والباذنجان ثم عاد للعمارة، وصعد لشقته، فوجد الشقة المجاورة لشقته مفتوحة، وهناك امرأة في نفس

سنه تقريبًا تمسك المكنسة وتكنس الأرض، إنها من سكنت تبع سنية، تعجّب لها، وشعر بقلبه يضطرب حين نظر لوجهها الذي أخذ يتفرّس فيه، وإذا بها تنتبه له، فوقفت وشهقت لمرآه، وهو انصدم فلم يكن على باله أنه سيراها مجددًا بعد بضع عشر عامًا، هتفت بدهشة:

- أدهم!

وكذلك هتف بذهول:

- نسمة!

اقترب منها والبسمة تعلو شفتيه، هي نسمة الحكيم كما يذكرها لم تتغير ملامحها كثيرًا، ولم يعرف الشيب طريقه لها بعد، السمراء التي وقع في حبها يومًا ها قد عادت. وهي أخذت تتأمله كيف بلغ من الكبر، وكيف صيّره الزمن، وأحست بعنفوان الشباب يضرب خديها حمرة، ما صدقت أنها أمامه مجددًا يران بعضهما وتسمعه ويسمعها، قال لها:

- أنتِ الساكنة الجديدة حقًا؟

أومأت في خجل وقالت:

- أُعذرني لم أدرِ أنك تسكن جواري.

- العمارة ملكي.

- آه، لم أسأل سنية عن اسم صاحبها، آسفة..

مسكت دمعها كي لا ينطلق حين قالت:

- كيف حالك يا أدهم؟

- في نعمة يا نسمة، أنتِ كيف حالك؟

نظرت للأسفل في أسى وقالت:

- طُلّقت منذ شهور.

- لمَ؟

تنبه أنهما يتحاوران في الطريق أمام الشقة، ففتح شقته واستقبلها في صالته، وقدّم لها شايا دون أن يسألها عن عدد معالق السكر حيث يذكرها حينما كانت تحتسيه جواره في كلية الهندسة التي لم يُكملا تعليمهما فيها في زمن غابر، وجلس قبالتها وهما يرشفان الشاي، وسألها:

- ما ألمّ بكِ يا نسمة؟

فحكت نسمة:

- زوجي نَصَبَ عليّ حين ورثت عن أبويّ، أكل مالي ثم لفظني، تزوجني في الأصل لغنا والداي وبسطة عيشنا.. سامحه الله! طلَّقني وتزوج بأخرى شابة منذ أيام يتمرمغان في الإرث المسلوب.

الدنيا تلف وتدور، وكما تدين تدان، ضاع إرث الحكيم كما أضاعوه من الجميل، عادوا كما كان جدهم شاكر فقيرًا معدمًا، لم تجد نسمة بيتًا يئويها لأيام، استقبلتها صديقتها في بيتها حالما تجد بيتًا، وها هي تقطن الشقة المجاورة لأدهم في نهاية مطافها.

قال لها أدهم:

- لا بأس عليكِ يا عزيزتي نسمة، عوّضك الله عما فقدتي.. وأولادك أين هم؟

نظرت له في شيء من الخزي، ثم قالت بصوت واهن:

- ليس لي أولاد، أنا عاقر لا أُنجب.

المسكينة! إنها مجروحة وبشدة في عقر قلبها، قال لها أدهم:

- أنا جوارك يا نسمة وقتما أردتيني، طيّب الله خاطرك وقلبك الأبيض. بالتأكيد تحتاجين للراحة، سأتركك ترتاحين..

ورحلت نسمة لشقتها تنام كمن لم تنم لأعوام بينما جلس أدهم في غرفته يفكر في أيام ورود الحب على قلبه وقلب نسمة، وحدّث نفسه: (سحقًا لآبائنا والله! هم السبب لما هي فيه، لم يضعوا في حسبانهم المستقبل وما يخبئه القدر للأبناء والأحفاد، نسمة حفيدتك الآن معدومة يا شاكر الحكيم، هل نفعتها كما كنت تخطط لأنجالك بمستقبل باهر حينما تورّثهم الأراضي والعمارات التي صنعتها من الذهب الذي نهبته من صندوق جدتي ليلى؟ وأبي يُحمِّلني إرثًا لا طاقة لي به، ولا لنسمة طاقة بما حمَّلته بها أمها جميلة، لماذا على الأبناء تكبُّد عناء أخطاء الآباء؟ كلا، لن أُكمل الحياة تحت طوع الذكريات الغابرة)

في اليوم التالي صباحًا، ذهب لنسمة، وقال لها:

- لقد ظلمنا أهلانا..

قالت بحزن باد على وجهها الأسمر:

- أعلم يا أدهم، سامحهم الله.

فأردف:

- ولكننا لسنا مرغمين أن نسير في دربهم الخاطئ، لمَ نحمل فوق عاتقنا أخطاءهم؟

سألته وقد خطر لها خاطر عن سبب زيارته:

- ماذا تقصد يا أدهم؟

قال بثقة بعدما لملم شتات نفسه جيدًا:

- قديمًا منعونا من الزواج، ما وجدنا من إرثهم سوى الهموم والأحزان.. فلنتزوج يا نسمة..

صُعقت حين قالها، وهتفت:

- نتزوج!

فكرت برهة، ولمَ لا وهي تحبه منذ زمن؟ فليذهب إرث الأباء من الكره للجحيم، ولتحلق القلوب في سماء العشق، قالت له كشابة يطلب منها حبيبها الزواج لأول مرة:

- حقا يا أدهم!

- فلينتصر حبنا على كره آبائنا يا نسمة، أحبك ولم يتوقف قلبي عن حُبّك يومًا.

ترقرقت دمعة في مقلتيها وشعشعت البسمة على شفتيها، وقالت:

- والله ما أحببت غيرك يا أدهم، وما قبلتُ بالزواج إلا غصبا من أبواي.

- إذن..

بفرح شقشق في عينيها قالت:

- بالفعل ليس علينا تكبّد مشقة الأخطاء التي ليس لنا فيها يد، أجل يا أدهم، أقبل زواجك طبعًا.

طار القلبان فرحًا وطربًا، لأول مرة منذ وقعا في حب بعضهما في الكلية زمان يفرحان. وعاد يحيى من كليته في إجازة ليشهد زواج أخيه بمحبوبته متفهِّمًا قصتهما، فدعى لهما بصلاح الحال، ورأى أن أخاه يستحق من تؤنسه وتُدفئ قلبه.

زواج من قاربا الخمسين جعل الناس تضحك عليهما رغم عزوفهما عن الفرح والهيصة الصاخبة، ولكنهما في رحاب الحب لا يأبهان لحديث الناس ولغوهم. في عشهما الآن يستأنسان ببعضهما ويُعوِّضان سنوات من الفراق والازورار بين القلبين وما مرّ أحد الجيران من تحت الشرفة إلا وسمع أدهم بصوته العذب يُطرب آذان نسمة بأغاني الحب والعشق.

* * * *

ومرَّ العام تلو العام، وتخرج يحيى من كليته، واشتغل محاسبًا صغيرًا في شركة المقاولات بشبرا الخيمة، وبدأت حياته على نهج طبيعي يسير، واتَّخذ من نسمة أختًا كبرى كما اتَّخذته أخًا أصغر بل ابنًا لها، وكانت تقول لأدهم:

- لو كان كُتِب لنا الزواج في شبابنا لكان لدينا ابن مثل يحيى الآن، ولكنه القدر وبه أرضى..

وتخطى أدهم ونسمة الخمسين، ولم يريا أنهما يحتاجان من الحياة شيئًا آخر يعيشان للتطلع إليه سوى زواج يحيى واستقراره وبعدها يموتان معًا في راحة أزلية! فبادرت نسمة يحيى ذات يوم بالأمر، فإذا بها تفاجأ برفضه، وأي شاب يرفض الزواج وهو ميسور حاله؟ لم يُشغل أدهم نفسه به حتى لا يشعر يحيى بأنه يُرغمه، وترك نسمة تحاول هدهدة رأسه ومعرفة سبب رفضه الذي لم يُعلنه، وأخذت تتبعه مراقبة خطواته في البيت، وجدته يُغلق على نفسه الباب كثيرًا وحيدًا لا أنيس ولا جليس، مرات ومرات استرقَّت السمع ذات ليلة، فسمعته يئن وجعا يتألم بُحرقة، ما الذي اعتراه ويكظمه؟ صدحت بالأمر لزوجها، فواجهه، وقال يحيى المفاجأة الصادمة له:

- أنا مريض يا أدهم.

- مريض! أي مرض؟

- لا أعلم، الطبيب لا يعرف ما المرض الذي ألمَّ بي، وجع يفتك بأحشائي، ولا يوجد مُسكِّن آلام يهدئه.

حزن أدهم لما سمع، وإذا به يشعر بوجع في جنبه، وإذا بيحيى يفاجأ به يتألم ويسقط على الأرض.

* * * *

- للأسف يا سيد أدهم، أنت مُصاب بالسرطان، ولقد اجتاح جسدك منذ فترة.

هكذا قال الطبيب لأدهم المصدوم، ومن خلفه يحيى ونسمة يبكيان لحاله، ولكنه هدأهما قائلًا:

- ما لكما تبكيان عليّ، لقد كبرت وهو المتوقع لمن في مثل سني.

قالت له نسمة بسرعة:

- بعد الشر عنك يا حبيبي! ستُشفى بإذن الله.

وقال الطبيب:

- ستظل معنا بالمشفى للعلاج يا عم أدهم، لا مناص من ذلك.

نظر أدهم ها هنا ليحيى وقال:

- فلترجع مع نسمة البيت.

فأسرعت نسمة تقول:

- والله لن أتركك هنا وحدك حتى لو نمتُ على البلاط..

يعلم أن دماغها ناشفة كما يقول دائمًا، فلم يُطل في الجدال. وانتقل لسريره بالغرفة ووضعته الممرضات على الأجهزة وبقي يحيى ونسمة خارج الغرفة بالمشفى ينتظران اعتدال صحته ومر يوم ويوم، وجاء الطبيب يقول لهما:

- يؤسفني قول ذلك، ولكن حالته جد صعبة، وأظن أنه لن يتماثل للشفاء عما قريب.

في حزن وبكاء، افترشت نسمة الأرض ورفعت يديها لله داعية، وبينما هي كذلك إذ وقع يحيى على الأرض يتألم من وجع في بطنه، ألم شديد لا يقوى على احتماله، فأسرعت نحوه تتفقده، ولا تحسن صنع شيء لإنقاذه من الألم، وجاءت الممرضات يحملنه بأمر الطبيب لغرفة مجاورة لغرفة أدهم، وضعوه على السرير، وأخذ الطبيب يتفقده، ولم يعلم ما حلّ به، فلم يجد حلًا لألمه سوى حقنة مهدئ الخيول التي جعلته يهدأ رويدًا رويدًا، ونسمة بالخارج تنظر لكلتا الغرفتين في بكاء وحزن تقول:

- ما أصابكما يا حبيباي؟

رفعت يديها للسماء ودعت: "يا رب استرها على زوجي أدهم وابني يحيى، يا رب اشفهم ولا تحرمني منهما.."

وجاء الجيران من المنطقة والأقارب أبناء عمومتهم، وأيضًا ولدا كمال الشوربجي عرضا المساعدات المالية ودفعاها قاطبة، وانتظروا جميعًا خارج الغرفتين الخبر من الطبيب، وأملهم كبير أن يمتثل الأخوان للشفاء، فلم يجدوا منهما سوى كل خير، وهما مثالان لكل شباب القرية يحبون سماع ذكرهما دائمًا لما فيهما من الشيم والأخلاق والأدب.

خرج الطبيب من عند أدهم يهتف:

- أدهم قد استيقظ ويطلب رؤيتكم.

أشرقت وجوههم، ونسمة نبضت في وجهها الحياة وشعرت بالشباب يضرب أوصالها من جديد، ودخل الأهل غرفة أدهم يملأونها عليهم

ولكن نسمة قبل دخولها أحبَّت تفقُّد يحيى وأن تُخبره باستيقاظ أخيه علَّه يُشفى من دائه، دخلت عليه الغرفة حيث الطبيب يتفحصه مع الممرضات من حوله، وسمعت صفير جهاز قياس معدل ضربات القلب، صفيرًا تعرفه جيدًا، والممرضة قد وضعت كلتا يديها على صدر يحيى، وتضغط عليه ضغطات متتالية، وبعدها بثوان من رؤيتها ذلك المشهد، سمعت الطبيب يقول:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنا لله وإنا إليه راجعون.

صاحت بكل قوتها:

- مات!

وانطلق صريخها يهز الأركان، وخرجت من الغرفة تصرخ وتولول وتلطم خديها بشدة والأهل، التفوا حولها يتساءلون ما جرى فأنبأتهم:

- يحيى مات!

* * * *

بعد دفن يحيى بأيام، على كرسي متحرك بعجل خرج أدهم من المشفى، تسحبه نسمة، الحزن طابق على وجهه، لقد فقد أخاه الذي اعتبره ابنه، وبينما هو يسير قال لنسمة:

- لِمَ لم أمت أنا؟ لِمَ يحيى؟

- بعد الشر عليك لا تقل هذا وكن مؤمنًا بالله.. الله يمتحن عباده في موت المُقربين لقلوبهم دائمًا.

- لا إله إلا الله! كنت أظن أن أبو خميس صديقي قد كفر حينما مات خميس، ولكنني كنت مخطئًا، حين موت الحبيب لا ترى العين إلا الغضب الأحمر

الناجم عن الحزن. غفر الله لك يا أخي، وغفر لخميس، وبكر وهدى وماما فتحية وأبويّ.

- اللهم آمين..

ورجعا البيت أخيرًا، وانتحى أدهم بنفسه في غرفته، وأخرج من صندوقه الألبوم الذي يحوي صورًا لكل من صادفهم في حياته ولمسوا قلبه، وقلّب فيه حتى وصل للصورة الأخيرة؛ صورته ويحيى ونسمة في منزلهم، معًا يبتسمون في سعادة، ترقرقت الدموع في مقلتيه، ودخلت عليه نسمة، فأخذت منه الألبوم وأغلقته ثم أرجعته للصندوق، وقالت له:

- هلَّمّ يا حبيبي لتنام، فأنت مُتعب..

ونام أدهم على سريره ونسمة تحتضنه بحنان، ورأى حوله فيما يرى النائم صور الألبوم تطير في فضاء الغرفة..

* * * *

وفي تواريخ متقاربة، مات أدهم الجميل، واندثر معه في التراب نسل محمود الجميل للأبد، ومن بعده بأيام ماتت حَرَمَه نسمة الحكيم من شدة الحزن على زوجها الحبيب الفقيد، وانتقلا معًا جوار الله مَن تحابَّا في رحابه.

تمت بحمد الله

أحمد قشوة

٢٣ أبريل ٢٠٢٠م

الفهرس

فتح الألبوم	٧
الصورة الأولى	١١
الصورة الثانية	١٩
الصورة الثالثة	٧١
الصورة الرابعة	١٢٣
الصورة الخامسة	١٨١
الصورة الأخيرة	١٨٩